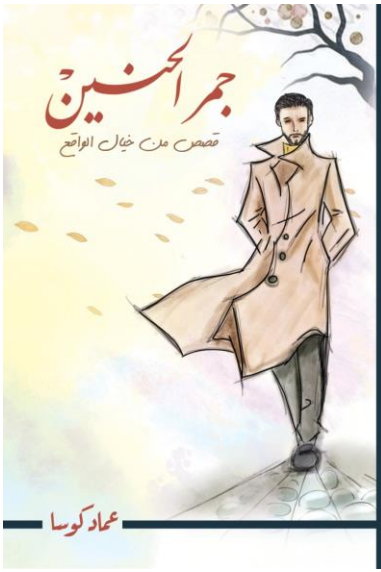

جمر الحنين
قصص من خيال الواقع
عماد كوسا
جمر الحنين
عندما كنا تحت المجهر، أنفاسنا محسوبة علينا، وعالمنا يضيق بأحلامنا، ننثر نجوم الأسى في ليالي الألم مع أزيز الرصاص الذي يمتزج بنباح الكلاب الشاردة، لننتقل عبر ممرات الحياة الضيقة، تقودنا فوهات البنادق إلى مصيرنا المجهول، تسمع وقع خطانا الثقيلة على دروب الألم في سنوات القحط الإنساني، نهرب من هدير طائرة، لنعبر الحدود إلى الغربة والتلاشي. نتطلع بعيون دامعة بالحنين إلى الجمر المتقد تحت الرماد لتشعل نيران الخلاص في رحلة البحث عن الحرية.
عناوين القصص التي تحتويها هذه المجموعة التي تجسد سلسلة مواقف اجتماعية منوعة حدثت أمام أعيننا جميعاً
تحت المجهر
سوخوي
الزوجة
ما حييتُ
أبو منفل
حبة العنب
جمر كانون
حنين تحت الرماد
عماد كوسا
Itkan kitap
دار إتقان للنشر والتوزيع
itkankitapevi@gmail.com
9 786050 601718

جمْرُ الحنين

قصص من خيال الواقع

عماد كوسا

جمر الحنين

قصص من خيال الواقع

عماد كوسا

دار إتقان للنشر
الطبعة الأولى 2020

ISBN 978-605-06017-1-8

جميع الحقوق محفوظة للناشر: يمنع نسخ أو طباعة أو تخزين أو إعادة إنتاج هذا الكتاب أو أي جزء منه بكافة طرق الطبع والتصوير والوسائط الالكترونية والميكانيكية.

الإهداء

إلى جميع من ساروا مثلي على جمر الحنين

المحتوى

1. تحت المجهر
2. الزوجة
3. أبو منفل
4. جمر كانون
5. سوخوي
6. ما حييتُ
7. حبة العنب
8. حنين تحت الرماد

-1-

تحت المجهر

لم أعد أهابُ مجاهرهم، فدونهم آلاف الدّحل تمنعهم عني.

طرقتُ الباب ففُتح عن وجه زوجتي الشاحب، تحاول أن تصطنع ابتسامةً فلا تسعفُها التجاعيد، ويكبحها الارتخاءُ والذبولُ المطبوعُ على وجهها. تملّكتها دهشةٌ، وارتفع الدم حتى أذنيها وامتلأت بالغيظ حين رأتني، لكنها لم تتكلم، فبادرتُها قائلًا:

- لماذا على المأساة أن تتكرر في العام مرتين؟

قالت حانقةً: وأين خفا حنين؟

قلتُ: حتى خفا حنين صارت لهما قيمةٌ في زمننا.

في العيد الماضي لم أترك بابًا إلا وطرقته؛ أريد أن أستدين شيئًا من النقود تعينني على تكاليف العيد، أسددها أقساطًا، قسطًا تلو الآخر، فأبى أكثر الناس إلا نفورًا، وكلٌ له أسبابه ودواعيه، فهذا يظنني كاذبًا محتالًا، وذاك يخشى أن أماطله، وآخر يضنّ بالنقود، والكلُّ يستدرك بأن يذكرني بسوء الأحوال، وضاقت على الناس عيشتهم، وأكثر الناس لا يسري في عروقهم أي إحساس بالفقر والحاجة، وفاقدُ الشيء لا يعطيه، ولا يصدّق أنَّ في الدنيا من يحتاج رغيفًا.

قلتُ لزوجتي: هذه الدنيا كلها للأغنياء والمترفين، بينما نصارع شظف العيش وضنَكه، وحتى العيد صار لهم، بعد أن فرَّغوه من مضمونه، وعرَّوه من قيمه، وأخرجوه بحلةٍ أخرى تتناسب مع أهوائهم.

جلستُ، فنهضَ كلُّ أطفالي، وتراكضوا يريدون أن يتفاجؤوا بما جلبتُهُ لهم.

وحقًا كانت مفاجأة وأيّ مفاجأة.

طأطأ أحدهم رأسَه وعاد الهوينى إلى وكره، وجلس الآخر منهارًا لا يصدق، وأنشأ الصغير يبكي بكاءً حادًا، كأنّ قطعة من جسمه قد جُزت.

في الصّباح سوف يخرج أطفال المترفين منتعشين بعبق العيد انتعاشَ الورود بحبات الندى، مزهوين بالأثواب الجديدة، مندفعين بالمرح والحبور، لا تكاد الأرض تحس بخطاهم، ومعظم الآباء يرون العيد من خلال عيون أولادهم، ويفرحون به من خلال فرحتهم، وكذلك أنا.

عندما أحبس أولادي في بيتي، وأمنعهم من مخالطة أقرانهم ولِداتهم، وأقنعهم أنّ هذه المخالطة ضربٌ من الاختلاط المحرَّم، منهيٌّ عنه في الشرع والقانون والعرف.

عادت زوجتي لتسأل:

«إنك لم تعدْ حتى بخفي حنين، ولا بُدَّ من وجود الضيافة، إنْ لم يكن من أجل الأولاد فمن أجل أن نحفظ ماءَ وجهنا أمام الضيوف».

ضاقَ صدري بهذه العادات البالية، التي غزتنا على طول غفلة، وأسَرَتْنا واستعبدتنا، والأخطر من هذا كله أننا لا نفكر في الثورة عليها والتحرر منها، بل نرتاح بها جاثمة على صدورنا معشعشةً في قلوبنا ورؤوسنا، مزيّنةً وجوهنا، ملتفةً حول أعناقنا، راغمًا عن أنفنا، كما تجثمُ جبالُ هيمالايا على جسد الهند والسند، لا أدري متى تهتز الأرض فلا تذرها إلا قاعًا صفصفا. ألم تبدأ الثورة على كلِّ بالٍ، وقد تحدث في الغد ما يشغل الناس عن لهو العيد.

رفعت زوجتي رأسها فجأةً، وعيونها تبرق بالأمل وقالت:

- وجدتُها.

- الحمدالله، فُرِجتْ.
- أبو صطيف درويش ...هل ذهبتَ إليه وسألته؟
- لم أطف القرية كلها كالسّائل، بل توجهت إلى عدد من الأقرباء والأغنياء.
- أظن أنّ أبا صطيف درويش يفك ضيقنا، هيا امض إليه يا رجل.

وبينما كنت في الطريق إلى أبي صطيف درويش راودتني صور عديدة عن ملامح الرجل، وتصرفاته، وعاداته، ومحاسنه ومثالبه ومواقفه وتحركاته، ونظارته الغليظة ذات الإطار الأسود، وشاربه المحفوف، ولحيته الخفيفة، وسبحته التي لا تفارق أنامله، وأقدامه التي لا تفارق أبوابَ المساجد. ومرَّت في مخيلتي صور أبنائه فشعرت بشيءٍ من المقت، لكنني ركزت في النهاية على أمرٍ واحد وهو أن الرجل من أعيان القرية وأشرافها، وليس من دراويشها، وتكاد القرية تقوم بقضّها وقضيضها بإشارة من سبابته، وتقعد.

صَدقَت زوجتي حين قالت: (وجدتُها).

وطرقتُ باب الرجل فإذا بالفضيلة والكبرياء والعفّة والوقار والبهاء والأنَفة والسّماحة والغبطة والبشاشة والحبور والوداعة والسّكينة والرحمة والهيبة والغموض يفتحون الباب.

- السلام عليكم أجمعين.
- وعليك السلام... وصمت.
- أطال الله عمرك يا سيدي ومولاي وسندي و...

نسيتُ أن أسلم على من كان يقف خلفه، شعرتُ بالإحراج الشديد لعدم انتباهي وارتباكي وقلة لباقتي، وعدم اتقاني فن (الاتيكيت).

استطعتُ أن أعرف ماذا قال أبو صطيف في نفسه، فاحمر وجهي وأردت العودة من فوري.

لكنَّ لسانَ الحاجة الذي في فمي انطلق يقول:

«أنتَ تعلم ما بي من فقرٍ وفاقةٍ شديدين، وقد توقفتُ عن العمل بعد أن توقف المعمل، وقد داهمنا العيدُ على حين غرّة، وليس لي يدان عليه، فجئت أمدّ يدي طالبًا العون ممن يمدُّ يده للعون».

قاطعني غاضبًا:

«إذا سألتَ فاسأل الله وإذا استعنْتَ فاستعن بالله، (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) أنت وأمثالك لا يكلفكم أحدٌ بتكاليف العيد، ولا ينبغي أن يزوركم أحدٌ، ويكون عالةً عليكم، بل أنتم من يجب أن يطوف على بيوت الآخرين لتنالوا من الضيافة ما تشاؤون، وأولادُكم».

حاولتُ أن أجمع شتات فكري لأقول له:

«وهل الناس يتزاورن في العيد بغرض الضيافة فحسب، هل أصبحت بيوت الفقراء مزابل منفرة؟»

قالَ يتنحنح:

«أقصدُ أنَّ بيوتَنا مفتوحةٌ لكم في العيد، وفي غير العيد».

واستاذن مغلقًا الباب في وجهي، فكرهتُ أن أنصرف دون أن ألقي التّحيةَ التي هي فرضٌ ولا شك.

- السلام عليكم أجمعين.

في هذه المرة تلقيت ردَّ السَّلام ممن كان يقفُ خلفَ أبي صطيف.

لقد كانَ شيطانُه الذي ألبَسَه ثوبَ الرجل الفاضل الورع التّقي العفيف الوقور البهي السّمح الحبور البشوش الوادع المهاب.

- وعليكَ السلام.
- عليكَ اللعنة، ولا زلت أرددها حتى استقبلتني زوجتي مرة أخرى، وتكرر نفس الموقف.

وبعد إطراقتها المعهودة قالت ثانية:

- وجدتُها.
- مَن؟
- المختار.

حين فُتح الباب عن وجه المختار، قرأتُ المفاجأة والدهشة في كل جسده، وددتُ أن تنشق الأرض وتبلعني، أو تبلعه، لم يدم صمته طويلًا، انطلق يصب عليّ الماء المثلج بكلامه:

- كيف نسيتُ أن أخبرك، لعن الله الشيطان.
- ما الأمر يا مختارنا؟
- إنهم يسألون عنك، نسيتُ أن أحذّرك، انتبه يا ولدي، لا تقم بأي عمل مشبوه، **أنت تحت مجاهرهم**.

ارتعدت فرائصي كلها، أو ما بقي منها، وأنا أتخيل نفسي معلقًا بسقف غرفة ظلماء رطبة، تسيل الدماء على جسدي من أثر الجَلد، فتمسكتُ بزنار المختار، وهو السلطة العليا في قريتنا، لا ندرك من بعده سلطة:

- أطال الله بقاءك، تعرفني جيدًا، كانت رحلتي اليومية من بيتي إلى عملي، والآن أقبعُ في بيتي، ولم تخرجني اللحظة إلا الفاقة، لا نيّة لي في أي عمل مشبوه.

حملق في عينيي كأنه يستجوبني:

- رفاقك الذين كنت تتسامر معهم، هل لازلت تتصل بهم؟

جالت بمخيلتي سريعًا آخر لقاءاتنا السريعة ونحن نبتغي راحة قصيرة بعد يوم مجهد، طافت بذاكرتي بعض الكلمات الرنّانة الجريئة التي ما كنت أسمعها من ذي قبل.

- لا يا مختار، انقطعت عن العمل ولم أعد أتصل بأحد.

وبحاجبين قاطبين وعيون قادحة حذّرني مجددًا من مجاهرهم، فانصرفتُ ناسيًا اسمي، وحريٌّ بي أن أنسى همّ العيد من الغد.

دخلتُ على زوجتي بسلّة الهموم ممتلئة. وبادرتها قبل أن تتفوه:

«قبل كلّ عيدٍ ترين في عيون ملايين الأطفال دموعًا صنعها تجار الدم والمال والروح، وتجار الإنسانية والدين والسلطة. تُذرف بلا هوادة لتتحدث عنها الصحف المحلية والأجنبية كخبرٍ عابرٍ يعترض موجة الإعلانات الموسمية»

ظلّت فاغرة فاها، هي وأطفالي، لم أحتمل نظراتهم، فهُرعتُ إلى فراشي، وقد ملأتُ نفوسَهم بالخيبة والتعاسة. ولكم وددتُ أن يخطفني ملكُ الموت في هذه الليلة فأرتاح من همومي دفعة واحدة.

أعياني التفكير فجذبتني براثن النوم؛ ووضعتني على أجنحة طائر الأحلام الذي أخذ يجول بي في عالم الغد:

رأيتني مع جماعة من الأغنياء نستمع لنشرة الأخبار، فسمعنا المذيع يقول: (أيها السّادة نلفت انتباهكم إلى أنّ يوم العيد قد أُرجئ إلى إشعار آخر، وذلك بسبب سوء الأحوال المادية للمواطنين)، وهللتُ للخبر وحدي، بينما استنكر كل الناس من حولي هذا الخبر، فانهالوا عليَّ ضربًا؛ كوني كنتُ مندسًا بينهم، ووضعوني تحت المجهر.

ثم رأيتُني أُشارك في استفتاء جماهيري حُر: أجب بنعم أو لا (هل تودُّ أنْ يكونَ يومُ الغد عيدًا؟)

وكان رأي الأكثرية هو (لا) وفوجئنا بالنتيجة على غير ذلك، وصرخنا بصوت ضعيف (هذا غش... هذا تزوير) فانهالت علينا الهراوات ولم نستطع تغيير النتيجة.

ورأيتني في حلم آخر مربوطًا إلى كرسي حديدي في غرفة حسبتها في قيعان الأرض، وأنا أسمع صراخ المساجين في الغرف المجاورة يصرخون **(الموت ولا المذلة)**، خلتهم يذوقون مسّ سقر، وكأني كنت أنتظر دوري، لكن ولله الحمد، داهمتني ذبابة قطعت عليّ الحلم.

ثم ما كدتُ أخلص من الذبابة ـ المشكورة ـ إلا ووجدتني أجمع الناس من حولي، وأدعوهم لرفض العيد، فصدّني أحد المشايخ قائلًا: يا ولدي، العيدُ شَعيرةٌ إسلاميةٌ لا يمكن تجاوزها ورفضها.

صرختُ وصرخ من معي:

- من يذكر ذلك يا شيخ؟ لقد صار العيد يومًا للأغنياء يُظهرون فيه غناهم وترفهم أمام تعاستنا وفاقتنا وقلة حيلتنا.

وسمعت أبا صطيف يصيح هاتفًا:

- (أنتم دحلُ العيد).

بينما وقف إلى جانبه جمعٌ غفير من وجوه وأعيان القرية وأغنيائها ومترفيها وأخذوا يهتفون بنا:

(لا تفسدوا علينا لذة العيد)

وفي المقابل تعالت صيحاتنا لتبلغ عنان السماء:

(لسنا دحل العيد، لا نريد العيد...)

ووقفوا قبالتنا، واحتدم بيننا سجالٌ شديد، وحاولنا أن نحلّ المشكلة سلميًا، إلا أنَّ أحدًا لم يتنازل عن رأيه، وتطور الصراع والأخذ والرد، إلى أن تساقطت علينا الحمم من كل مكان، لا تميز بين غني ولا فقير، ولا بين دحلٍ أو لاعب بالدحل، وسُمع دوي إطلاق النار، وشعرتُ بوخزٍ مؤلم في خاصرتي، ثم في صدري، مددتُ يدي فإذا بها تخضبت بالدم، فصرخت بذعر:

(إنني أموت...أُقتل...أستشهد)

وفتحتُ عيني لأرى زوجتي وأولادي واقفين فوق رأسي مشدوهين. ناولتني زوجتي كوب الماء فارتشفتُ منه رشفةً، وأومأتْ هي للأولاد فعادوا إلى فُرُشهم.

وما أن وضعت الكأس من يدي حتى انطلق صوتُ المؤذن يؤذن لصلاة الفجر، فنهضت أتوضأ وأصلي وأدعو الله بالفرج.

وما كدت أنتهي من دعائي حتى انتبهت لضجيجٍ وصخبٍ يعلو شيئًا فشيئًا، أعرتُ انتباهي الشديد كي أعلم ما الأمر، فسمعت دويّ الرصاص يأتي من كل صوب، اجتمعنا جميعنا كبارًا وصغارًا في زاوية الحمام، بعيدًا عن النوافذ، حتى تمر هذه المعمعة المعتادة.

واستمر الحال حتى الغدوة، وفتر الضجيجُ رويدًا رويدًا وتملكتني شجاعة، وساقني فضول إلى الشارع للوقوف على جلية الأمر، ومعرفة ما إذا كانت القرية ستصلي صلاة العيد أم لا.

فعلمت أنهم قد جابهوا المظاهرة التي خرجت من بعد صلاة الفجر من صبيحة العيد بالرصاص.

وناد منادٍ:

فلنشيع الشهيد ياقوم (إنا لله وإنا إليه راجعون).

تملكتني غبطةٌ شديدةٌ. لا والله ليس للمظاهرة، ولا للمواجهة، ولا للشهيد. بل رفعت يدي بالدعاء وتوسلتُ إلى الله تعالى أنْ يتغمَّد الشهيد برحمته، ويسكنه فسيحَ جنانه، فإنّ له فضلًا عليَّ لا أنساه ما حييت، حتى ولو كانَ من غير عائلتي، فقد أسدى إليَّ معروفًا، وأنقذني من ورطة، وفرَّج عني كربةً من كربات الدنيا، فرَّج الله عنه كربة من كربات الآخرة. فلم أعد أهاب مهاجرهم، فدونهم آلاف الدحل باتت تمنعهم عني، ولن أبالي بضيافة العيد وتأنيب زوجتي، فسيُقضى يومُ العيد لا محالة في تشييع جثمان الشهيد إلى مثواه الأخير، ودفنه وتعزية ذويه، وقراءة القرآن على روحه الطاهرة. هذا إن لم يتأزم الأمر أكثر.

ولن يكون في القرية عيدٌ، بل ستكون فيها ثورة.

-2-

الزّوجة

شيئان في الدنيا يستحقان المنازعات الكبيرة:
وطنٌ حنون وامرأةٌ رائعة.
رسول حمزاتوف

مدّ يده إلى جيبه الداخلي يتفحص صرةً صغيرة، وهو يهمُّ بمغادرة المعمل الذي طوى فيه ساعاتٍ طوال من يومه المتعب. اقترب منه الرّيس وبادرهُ بالقول: «لا تتأخر غدًا يا عبد الستار، لقد تراكم العمل كما ترى». هزَّ رأسه موافقًا دون أنْ يتأمّلَ شكلَ الغد كيف سيكون. ونفض عن ثيابه زغب الصوف وأومأ للحارس برأسه يودعه دون ابتسام، وخرج من الباب الحديدي لتلسع وجهه نسمة باردة.

كانَ النهارُ يسحبُ آخرَ خيوط النور المتناثرة على أعالي الأبنية الحجرية، بعد أن ودّعت الشّمسُ أديمَ الأرض، وأفسحتْ الطريقَ لنسيمٍ باردٍ يتسلّلُ من بين النفوس الكئيبة لتُنذر برياحِ أواخرِ الخريف، وتُنذرَ بالمطر، في حين كانَ العجيجُ يتخافتُ رويدًا رويدًا، تاركًا خلفهُ صمتًا مرعبًا يوحي بالوحشةِ والغربة.

أحكم عبدُ الستار أزرار سُترته، ورفعَ ياقةَ كنزة الصوف التي لاصقت جسمهُ لشتاءات أربعة، ووضعَ القبعةَ على رأسه المغطّى بالشعر الأسود الفاحم، وهو يمشي نحو الرصيف المقابل لباب المعمل ليعود إلى بيته بعد يومٍ طويلٍ مجهد أمضاهُ في المعمل بين زَغَبِ الصّوف وكراتين البضاعة وأكياس الخيوط.

كانَ قد انقطع عن العمل طيلةَ شهرٍ كاملٍ، شعر كأن مفاصله أصابها الصدأ، لذا فقد كان يومه الأول بعد هذا الانقطاع شاقًا

وقاسيًا، شعر بالوحدة وكأن أحدًا هنا لا يعرفه، مع أنه أمضى هنا أغلب أيام صباه وشبابه.

لقد تعلم سابقًا أن الفراغ كسلٌ ورخاءٌ وانحطاطٌ للهمّة، وأنَّ العملَ مع المداومة نشاطٌ وتجددٌ ونماءٌ.

لكنّ العمل المجهد بعد راحةِ شهرٍ كاملٍ ما هو إلا عقوبةٌ تأتي لتنال منه ثمن تلك الراحة، ومع ذلك فإنه يمنّي نفسهُ بأنَ الغد سيكونُ أرحمَ من اليوم، وبعد غد يكون قد انصهر في البَوتقة المعتادة، وتدور الأيام دورتها المعهودة، فيضيع فيها شقاؤهُ وتعبهُ وإحساسهُ ووجودهُ. فلا بدّ أن يزول هذا الصدأ، وتدور عجلة العمل في الغد القريب.

دسَّ يديه في جيبي السترة يقيهما البردَ وهو يتوجه إلى المحطة. كان متشوقًا إلى بيته وزوجته التي يريد أن يفاجئها اليوم ببعض الفواكه، لذلك فإنه كان ينتظرُ الحافلة بفارغ الصبر، مشى خطوات عديدة في الشارع الذي بدا مهجورًا، وهو يرمقُ أوّله، ينتظر النور المبهر الذي يبشر بقدوم الحافلة. حرّك يده ببطء لتغوص في جيب السترة الداخلي ويتحسس صرةً صغيرة تعطيه دفعًا هائلًا من الشعور بالأمان، كانت عيونه ترقب أضواء الحافلة حينما تذكر فجأة أنه لم يشترِ شيئًا من الفواكه يفاجئُ بها زوجته المسكينة. لامَ نفسه على عادة النسيان البائسة، وقرر أن يبحث في الجوار عن أي محل يشتري منه أي نوع من الفواكه، حتى لو كلفه ذلك انتظار الحافلة التالية بعد ساعة.

سيصلُ إلى بيته وفي يدهِ كيسُ الفواكه، ويطرقُ البابَ بهدوء لأنَّ زوجتهُ ستكونُ متيقظة تنتظر عودته، أو ربما تكونُ خلف الباب جاثمةً تنتظرُ سماعَ وقع خطاه في الخارج، فتُهرعُ إلى الباب وتفتحهُ؛ لتستقبله ببشاشتها وابتسامتها وإشراقتها ونضارتها وخدودها المتوردة

وألفاظها التي تجدُ طريقها سريعًا إلى أعماق قلبه، سيحتضنها بنهم، كأنه يلتقي بها بعد فراق طويل، ستقول له زوجته بنبرة أشبه بالنغمة الشجيّة: «حمدًا لله على السّلامة يا عبد الستار»

سيهزُّ صوتُها لواعجَ نفسه، فيعصرها بين ذراعيه، فتنزع عنه برد الطريق، والصور العالقة في مخيلته لليوم المجهد الطويل، وتنسيه كلّ الأحداث التي سمع بها والجرائم. وتنزع عنه صورةَ الشقاء والعبودية التي عاشها منذ الصباح، وتُلبسهُ حلّة السعادة الجميلة.

سيقدم لها كيسَ الفواكه مبتسمًا، دون أن يلقي بالًا إلى عتابها له على إسرافه.

سيقول لها: «من أجل عينيك يرخصُ الغالي»

ولن يطول انتظاره حتى تضع له العشاء، سيأكل بنهم لأنه لم يشبع من لفافة الفلافل التي تناولها في منتصف النهار. رائحةُ الشاي الساخن ستملأ خياشيمه وتسكره، وتجعله يحوم في حُلمٍ جميلٍ، مكلّل بابتسامة زوجته وضحكاتها، ستتساقط عن وجهه كلُّ تقاسيم التعب والشقاء والألم والحزن الممضّ، والفقر المتقع وجَور الأيام والمآسي والعذاب.

سيتناول سيجارته ويشعلها ليمتزج دخانها بالبخار المتصاعد من كأس الشاي، ويحلق هو مثل هذا الدخان ويضيع في الأثير.

أحبّها وأحبّته كعصفورين غردا في صباحٍ مشرقٍ بهيجٍ، وهو يشكُّ في المثل القائل: (إذا دخلَ الفقرُ من الباب هربَ الحبُّ من الشباك) ويَعتبر هذا القولَ لا معنى له في عالمِه الصغير، فها هو ذا

يحب زوجته تحت سقف هذا البيت والفقرُ ثالثهما، دون أن يهرب أحد... هل يا ترى لأن بيته بلا شبابيك؟

شعورُ الشوق كان غريبًا.

نظرَ من نافذة الحافلة فبَدت له أضواءُ القرية خافتةً كنجومٍ تتلاشى في فضاءٍ واسع.

أمسكَ بكيسِ الفواكه وهو يخترق ممرّات القرية الضيّقة والمظلمة، لا يكادُ يسمعُ سوى نباح الكلاب. دنا من بيته وقد بدأ هاجسٌ مخيفٌ ينتابه، أحسَّ بأنَّ هذا المكان هو موضع الشقاء الأزلي، وأنَّ أمانيه كلَّها يجب أنْ تتلاشى عند أقدام بيته، لم تبادره ذكريات الأمس لأنه كانَ في نشوةٍ عميقة وحلمٍ جميل، كانَ يشعرُ بالرعب وهو يراقب جدران البيوت. داهمه خوفٌ مفاجيء من أزيز الرصاص.

شعر بالهلع وهو يدنو من باب بيته.

طرق الباب بهدوء.

وتحسّس كيسَ الفواكه ليُفاجيءَ به زوجته، واستعدت تقاسيمُ وجهه لتبتسم أو لأن تستقبل الابتسامة.

ولما شعر بالهدوء المرعب طرَقَ الباب ثانية، ثم طرق مرةً أخرى بقوة أكثر وهو يحاول أن يبرّرَ لزوجته تأخرها، فَعَلّها تكونُ نائمةً، أو تعاني شيئًا من المرض.

خرجَت أمّهُ من الباب الخشبي المقابل فوجدَتْهُ يطرقُ الباب، فدلفت مسرعةً وأخبرت زوجها بالأمر، فخرج والدهُ ملتاعًا تتبعه الأمُّ وفي عيونها دموع، شعر عبد الستار أنه أحدث جلبة أيقظت والديه فبادر معتذرًا.

قال والده وهو يضع يده على كتف عبد الستار:

- أتشكو من شيء يا ولدي؟ أراك تطرق الباب؟

تجمدت الدماء في عروقه وشعر بقشعريرة باردة تسري من أخمصي قدميه حتى رأسه، بينما سقط كيس الفواكه، وسقطت دمعة ثقيلة من بين أهداب أمه. مدّ يده إلى جيبه الداخلي وتحسس الصرة بمزيد من الألم.

في الليلة الماضية قال له والده: «أمَا آنَ لك أن تعود إلى عملك يا عبد الستار؟»

ووعدَهُ عبد الستار أن يمضي من الغد إلى المعمل طالبًا من أمه أن توقظه باكرًا.

«يبدو أنّ العمل المجهد بعد الراحة الطويلة قد أثّر فيك يا ولدي»

اعتذرَ مرةً أخرى ومدَّ يده إلى جيبه وأخرجَ المفتاح وأدارهُ في قفل الباب، ودفعهُ مصغيًا إلى زعيقه القاتل، مترقبًا ظلمةَ الغرفة ووحشتها، كأنها قبْر كان قد فَرَّ منه في الصباح فهو يُلقى فيه الآن، وتوارى في ظلمتهِ وهو يقول لأمه: «أيقظيني باكرًا»

وبدا كأنه لم يسمع أمه تقول: «لقد أعددتُ لك العشاء، ألن تأكل؟».

أغلق الباب من خلفه، وهوى بجسده الغارق في القدم على الأريكة دون أن يشعل الضوء، لم يكن بحاجة إليه، وجهه لا يزال تحت تأثير النسمات الباردة، صوت أنفاسه كان صاخبًا، يطغى على ضحكات زوجته وتعليقاتها الساخرة، وعتابها له على شراء الفواكه، كانت موجودةً في كل فضاء الغرفة وزواياها، تتطاير مع دخان السيجارة. رائحتها كانت عبقة كرائحة الشاي، يمتزج بخار الشاي بدخان السيجارة التي لم يشعلها بعد.

أخرج من الصرة أساورها الثلاث وتنسم عبق معصمها الدامي، داهمه الماضي دفعةً واحدة، كسيل تحطم السد من أمامه، لم يكن يحس بأنه يحلق مثل هذا الدخان ويتلاشى في الأثير.

فقط كان يحسّ بألم الرصاصة الفاجرة، التي فجّرت رأس زوجته في مظاهرة الحرية قبل شهر.

-3-

أبو مَنْقَل

سأل المكنُ المستحيلَ: أين تقيم؟ فأجابه:
في أحلام العاجز.
طاغور

ـ أمامَنا نقطةُ تفتيش بعد حوالي ربع ساعة.

صاحَ سائقُ الحافلة منبهًا الركاب، وهو يمعن النظر في الطريق الإسفلتي الأسود وحوافهِ من الجانبين خشيةَ أن تظهر له أية مفاجأة لا تُحمد عقباها، فكثيرٌ من الحافلات اعترضتها عبوةٌ ناسفةٌ ضالة، أو وجدت نفسها على حين غرّة وسط معركة حامية الوطيس تدور رَحَاها على قارعة الطريق.

كان الهدوء يسود أجواء الحافلة قبل أن يصيح السائق، لكنه كأنما أدار مفتاح الحديث حينما نبّه بوجود نقطة التفتيش، فأيقظَ فيهم شعورًا مسترخيًا أوشك على النوم، فلا أحبَّ على قلوب هؤلاء العامّة من أن يتناسوا ولو للحظاتٍ قليلة صراع الأيام المريرة، والأحداث الرهيبة، ووصف أبشع طرائق الموت، وصور الجثث المتقطعة الأوصال، والأبنية التي سوّيت بالأرض، وأنابيب المياه المتقطعة التي تضخ الماء على الركام كوريدٍ ينزف دمًا.

قال أحد الركاب:

- إن قريتنا هي من القرى المسالمة والمحايدة التي لا يستهدفها أحد.

أجابه آخر:

لم يعد هناك أحدٌ محايد في هذه المعمعة.

ردَّ عليه الأول:

- لم نعادِ أحدًا.

أجاب صوت خشن:

- ولم نساند أحدًا.

أدار أحدهم رأسه إلى الوراء متوجهًا إلى الموظف الذي التزم الصمت:

- وما رأيك يا أستاذ؟

كان الشاب ذو السادسة والعشرين عامًا يشعر بحقدٍ دفين تجاه هذا السؤال اللعين الذي يهبط على قلبه عشرات المرات خلال اليوم الواحد، ولا يرى بدًّا من الإجابة عليه، ولو بكلام فارغ.

قال بلهجة تنمُّ عن عدم رغبته في النقاش:

- نسأل الله حسنَ الختام.

والتفت من فوره إلى النافذة ليوحي لهم أن يكفوا عن الثرثرة.

لكنّ جوابه فتح أبوابًا أخرى للنقاش من حيث أراد إغلاقها.

- وكيف يكونُ حسنُ الختام يا أستاذ آواز؟

بدأ الغيظ يسري مع الدم في عروق الأستاذ، زاد من غيظه زجاج النافذة المتسخ الذي أجبره أن يلتفت إليهم، ويبحث عن أية كلمات تكون مناسبةً لصدِّ الحديث:

- حسنُ الختام لا يعلمه إلا الله.

ترددت من حوله أصواتٌ كثيرة في الحافلة تنادي (لا إله إلا الله... الله أكبر).

- لا تُكبّروا يا شباب ... أمامنا نقطة تفتيش...

- وهل نكفر كرمى لعيون الحاجز ؟

صاح السائق مجددًا:

- أمامنا حاجز التفتيش.

سمع الأستاذ آواز تعليقات كثيرة.

- لن يوقفونا.
- لا... لا بد أن يوقفوا كل سيارة مارّة.
- بعد أن يدركوا وجهتنا، سيقولون لنا تابعوا مسيركم.
- أظن أنهم سوف يدققون أكثر هذا اليوم.

بدأت الحافلة بالوقوف على يمين الطريق. ورأى الأستاذ آواز من خلال النافذة المتسخة بعض العناصر شائكين أسلحتهم، متأهبين لأي طارىء، راقب ما سيحدث، نزل السائق إلى قائد نقطة التفتيش وصافحه، يبدو إنه ضابط، أشار له إلى اسم القرية المدوَّن في أعلى واجهة الحافلة، هزَّ رأسه بالإيجاب أكثر من مرة مجاوبًا على أسئلة الضابط، في حين تقدم عنصران وأحاطا بالسائق الذي تبدلت ملامحه، تقدم الضابط من الحافلة وصعد من باب الركاب.

- ألم أقل لكم... التدقيق يزداد يومًا بعد آخر.
- اصمت.

كانت علامات الغضب الواضحة على جبين الضابط كفيلة بنشر الرعب داخل الحافلة، وبدأ الركاب يتحاشون نظراته بإيحاءات مختلفة، البعض يتفقد أغراضه، البعض يغمض عيونه، وآخرون يحاولون السيطرة على أعصابهم مع ابتسامة جافة لتبدو الأمور طبيعية.

- ما اسمك؟

- عبد الرحمن.
- من أي قرية؟
- من كركوش.
- وأنت، ما اسمك؟
- إبراهيم محمد، أيضًا من كركوش.
- هاتِ بطاقتك.

قلّب الضابط بطاقة إبراهيم بين يديه، ثم حملق في وجهه وناوله إياها دون أن يعقب بكلمة.

- وأنت، ما اسمك؟

قال وهو يخرج البطاقة من جيبه:

- جميعُ الركاب من أهالي قرية كركوش، سيدي، وأنا اسمي آواز حسن من نفس القرية، وأعمل موظفًا في الديوان العام.

أمسكَ الضابط البطاقة بيده وتفحّصها، توسّعت عيناه وارتفع حاجبَاه، ورفعَ رأسه عن جبينٍ قاطبٍ، وتفحّص وجه الأستاذ آواز...

- أعِد ما قلته. من أنت؟
- أنا آواز حسن، من قرية كركوش، أعمل في الديوان العام.

تدخل إبراهيم مبتسمًا:

- الأستاذ آواز من خيرة شباب قريتنا.

بيده اليمنى وضع البطاقة الشخصية أمام عيني الأستاذ آواز في إشارة منه ليقرأها ويتأكد منها.

شعر آواز بوجود خطأ ما، قرّب عينيه من البطاقة وقرأها، قطب جبينه، حرّك رأسه يمنة ويسرة بحركة سريعة؛ يوقظ بها أية

خلية من خلايا دماغه قد تكون في غفوة... ما هذا؟ أنا آواز حسن حضرة الضابط، من قرية كركوش... موظف في...

صرخ الضابط بصوت مرتفع:

- لكن البطاقة تقول غير ذلك.

أمرَه الضابطُ بالنزول من الحافلة فورًا، وصرخ غاضبًا:

- تأكدوا من جميع البطاقات الشخصية، هذه الحافلة غير صديقة.

ولم يدم وقت طويل حتى عاد بعض العناصر إلى الضابط وأخبروه أن جميع ركاب الحافلة من قرية كركوش، ولا يوجد من بينهم مشتبهون.

أمر الضابط سائقَ الحافلة بمعاودة المسير، وأشار إلى آواز أن يمعن النظر ثانية في البطاقة الشخصية:

(عبد الودود جعفر. مكان الولادة: أبو منفل).

تفحّص الصورة، وجهٌ عريض، شعر خفيف، لحية سوداء خفيفة عند الذقن فقط، شارب أسود محفوف.

يا الله لمن هذه البطاقة؟ صاح في أعماق نفسه. بالكاد كانت ساقاه تحملانه، أمسك بيد الضابط متوسلًا:

- سيدي يجب أن تساعدني، هذه ليست بطاقتي، هناك خطأ في الأمر.

كان الضابط قد أمر عنصرين من عناصره بأخذ آواز إلى داخل الغرفة، وأمسك بجهاز الهاتف اللاسلكي ليجري مكالمة طارئة.

وجد آواز نفسه بين عنصرين من عناصر الجيش يمسكان بذراعيه، ويقودانه كأنه زعيم إحدى الجماعات المسلحة، وسقط في يد الجيش في ليلة اختفى فيها ضوء القمر.

جلس على كرسي بلاستيكي أبيض محروق من طرفه، دونت عليه الكثير من العبارات بخط غير مقروء. لمح الأقوال المأثورة المكتوبة بفرشاة الدهان على الحائط المصقول بالكلس والجبس. والصور المبّجلة المعلقة خلف الطاولة. والملابس العسكرية، وشورت، وفانيلا ملقاة على أريكة ممترئة.

إنه ليس في حلم، وليس في الحافلة، وليس على كرسيه في الديوان العام، وليس في بيته على مائدة الطعام، وليس في عزلته وانغلاقه على نفسه، وليس مع نبض قلبه الهادىء الذي كان يحافظ عليه جاهدًا، وليس مع حرصه الشديد على حماية نفسه وأهله من أي شيء يغير منحى حياته، إنَّ يومَهُ هذا ينحى لأول مرة منحىً آخر، إنه يخرج من الدائرة التي يألفها ويعشقها مهما ملَّ. هناك شيء ما يهترىء.

ذهب السائقُ بالحافلة دون أن يلتفت خلفه. المهم أن ينجو كل شخص بنفسه. ثم لا يهمّه بعد ذلك ما سيحدث لغيره.

لا بدَّ أن يستوضح الضابط الأمر، ويحقق ويدرك أنه آواز حسن، فهناك ألف طريقة وطريقة. لكن من أين أتت تلك البطاقة اللعينة الى جيبي؟ أين اختفت بطاقتي... أبو منفل... عبد الودود جعفر؟ صورة الرجل صاحب البطاقة. يحاول جاهدًا أن يتذكر أي شيء. معاملات كثيرة جرت اليوم بين يديه، التقى بعدد كبير من الناس، لكن لماذا خرجت بطاقته من جيبه؟ كيف جاءت هذه البطاقة إلى جيبه؟ أين تقع أبو منفل؟ من يكون هذا المخبول عبد الودود؟

قال له أحد الجنود:

- بساط الريح بانتظارك.

قال آخر: قد لا يتشرف به بساط الريح. (ربما نقطع له كارتًا).

ربما كان الحديث ساخرًا، لكنه كان يخفي بين طيّاته شيئًا من الحدة والجدية ما تُرعد الفرائصَ وتُهبط القلوب من بين الضلوع، وتصنع حول الدماغ ضبابًا كثيفًا تقيده من كل فعل.

- أسألكم بالله يا رفاق يجب أن تساعدوني، أنا آواز حسن.

أجابه أحد الجنود:

- إلحاحُك على الإنكار يزيدُ من أمرك سوءًا.

دخل الضابط إلى الغرفة وأخرج من خزانته آلة التصوير ثم التقط صورة لآواز وهو يقول له: (سوف نتحقق من أمرك).

استهله آواز قائلًا:

- سيدي الضابط هذا هاتفي الجوال سوف يساعدك كثيرًا في تحرّيك عني.

أخذ الضابطُ الهاتفَ الجوال وخرج من الغرفة، بينما سأل آواز نفسه إذا ما كان قد ارتكب خطًا.

غابت الشمس، وغاب الضابط لبعض الوقت، ثم ثاب وأمسك بيد آواز وأخرجه من الغرفة، سار غير بعيدٍ من الغرفة وأشار بيده إلى بعض الأضواء في القرية المقابلة لنقطة التفتيش:

- هناك... عند ذلك الضوء توجد حركةٌ غير طبيعية، نتوقع هجومًا مسلحًا على موقعنا في أية لحظة، نريد أن نعرف ماذا يجري هناك.

تخيّل آواز هجومًا مسلحًا عنيفًا وهو بداخل الغرفة، قد تُلقى قنبلةٌ أو قذيفةٌ، قد يُقتل هذه الليلة حرقًا أو طعنًا، أو تخترق رأسه رصاصةٌ طائشة أو قاصدة.

زوجتي وأولادي بانتظاري، إذا علموا بما حدث لي سيقتلهم الرعب، لا أحد يستطيع فعل شيء لأجلي، لن يُغمض لهم جفن ولن يرقد لهم جانب، ولن يهدأ لهم بال. أولادي سيبكون تحت الدثار حتى الصباح، قلوبهم الصغيرة سوف تصرخ برعب تحت جنح الظلام، سترسل نداءات استغاثة بإشارات لاسلكية مشفرة (من يستطيع فك شيفرتها)؟

- سنرسلك إلى هناك، لترى ماذا يحدث، ومن يوجد هناك، وماذا يريدون.

انتصب شعر رأسه وهو ينظر في عيني الضابط... إنه جادٌ.

- أنا؟
- نعم أنت، حتى تثبت أنك لست من أبو منفل، وأنك من كركوش يجب أن تثبت ولاءَك.
- لكن يا سيدي...
- أبو منفل منبع المسلحين، وكركوش موالية لنا.
- كركوش محايدة يا سيدي.
- لا مكان للمحايد هنا، نحن نحميها من المسلحين.

دفعه الضابط بيده نحو الأضواء البعيدة صارخًا:

- إذا حاولت الهروب سيكون لنا كلامٌ آخر معك.

ابتعد آواز عن نقطة التفتيش، وسار وحده عبر أراضٍ سهلية، قدماه تغوصان في التراب، والتراب يتسلل إلى حذائه. ولا شيء بمقدوره أن يتسلل إلى قلبه الممتلىء رعبًا.

لقد تفوّه أمام الضابط بكلام قد يقضي على مستقبله، المحايد بمنظور الضابط شيطان صامت يتعاطف مع المسلحين دون أن يصدح بذلك. يعلم آواز ذلك جيدًا من خلال التعاميم التي ترد إلى الديوان. لكن كركوش قريته التي تنأى بنفسها بعيدًا عن الأحداث هي محايدة، إذا عاد إليها فإنه سيبحث في الأمر بإمعان أكثر.

كان الفرار سهلًا للغاية، والبطاقة التي احتجزها الضابط ليست له، لكنَّ الضابط دوّن أيضًا كل المعلومات التي أدلى بها:

(آواز حسن من قرية كركوش، موظف في الديوان العام) ما أسهل الوصول إليه. ولكن أيةُ تهمة يمكن أن توجَّه إليه، تخيل نفسه يستمع إلى تهمته من قاضٍ عسكري: مشتبهٌ به ويحمل بطاقةً شخصيةً ليست له ويهرب من مهمة أمنية ينقذ بها حياة أفراد الجيش الذين يسهرون على حمايته خيانة عظمى، وتآمر كوني.

التهمة جاهزة.

بدا له أن الضوء الذي أشار إليه الضابطُ هو لمحل تجاري، فشعرَ بشيء من الطمأنينة، ربما يكون الضابط متوهمًا فلا وجود لأحد من المسلحين هنا. لم يظهر له أحدٌ في المحل، اقترب منه أكثر، الباب مفتوح على مصراعيه، وصناديق كرتونية ملقاة على الأرض، وقطع نحاسية للتجهيزات الصحية ملقاة بشكل عشوائي على الرفوف الخشبية.

كان يهيء نفسه لينادي أيّ أحدٍ يوجد هنا.

في نقطة التفتيش كان الضابط يقوم ببعض الإجراءات الضرورية للتحقق من هوية آواز، وكان جميع عناصره قد التزموا الجاهزية العالية وتوخوا الحذر الشديد من السيارات التي يوقفونها.

لم تمضِ برهةٌ حتى كان آواز مقيدَ الحركة بين يدي رجلٍ شديدٍ جاءه من الخلف، ولفَّ ذراعه اليسرى حول عنقه، ووضع سكينًا على خاصرته.

- من أرسلك إلينا؟
- لا أحد، أنا هنا لأشتري بعض المستلزمات.
- لا داعي للكذب، نعرف من أين أتيت.

كان الرجل قد همّ بقتل آواز لولا أن خرج عليه شابٌ ملثم، وأومأ إليه أن يتركه.

توجّه آواز إلى الشاب الملثم، كانت قواه قد خارت تمامًا، هوى على الأرض عند قدميه وقال:

- لا علاقة لي بشيء، ولست أضمر الشرّ لأحد.

أجاب الملثّم بكل هدوءٍ وثقة:

- جئتَ لتتجسّس علينا، وتنقل المعلومات لنقطة التفتيش.

فقدَ أيَّ أمل في النجاة، كان يردّد مهلوسًا:

- لا علاقة لي بأحد، أنا لستُ مع أحد، ولستُ ضدَّ أحد، أريدُ أن أعيشَ بين أولادي وأحبابي، أريدُ أن أعودَ إلى عملي، أريدُ أن أموتَ على فراشي.

تخيّلَ صوتَ إمامِ القرية يصرخ بأعلى صوته في المقبرة:

(وما تدري نفسٌ ماذا تكسبُ غدًا وما تدري نفسٌ بأيّ أرضٍ تموت).

بعضُهم يموتُ دهسًا، وبعضهم يحترق أو يُذبح أو يغرق أو يهوي من شاهقٍ فيرتطم بالأرض، تصدّه ثم تبتلعه، بعضهم يمزّق جسدُه أو تُقطّع أوصاله، قد يُعثر على كلّ أشلائه، وقد تضيعُ بعضها بين الركام.

إنه الآن يحسدُ فقط من يموت على فراشهِ، يلفظ آخر أنفاسه مع أنفاسِ ذويه، يجدُ بجانبه من يُغمض عينيه ويُغطي وجهه، ويحفظ كرامته بدفنه سريعًا بعد صلاة جنازة خاشعة.

- أقسمُ لكم إنني لا أنوي الشّر لأحد، لم أقتل نملةً، لم أذبح دجاجة، لم أدهس قطة، لم أصْطد عصفورًا، لم أتشاجر مع أحد في حياتي.

طلب من الشاب الملثم أن يسمعه حتى النهاية، ثم أنشأ يروي ما جرى، ويعطي تفاصيلَ دقيقةً عن حياته، عن بيته، عن عمله، عن معارفه. ثم صرخ في النهاية: (أقسم لكم إنني محايد)

تذكر قول الشاعر:

(لا توجد منطقة وسطى مابين الجنة والنار)

لا أحد يعي معنى هذه الكلمة فقد أختفت كلمة محايد من قواميس الجميع.

- هذا موظفُ الديوان العام، أعرفه جيدًا.

رفع آواز رأسه وسَما ببصره إلى وجهِ الرجلِ الذي تعرّف عليه للتو، تفحصهُ جيدًا محاولًا أن يتذكره، لكنه كان غريبًا تمامًا ولا يذكر على الإطلاق أن رأه في أي مكان.

موظفو الديوان العام على تماسٍ دائم مع الناس، ووجوههم تترسخ في ذاكرة الجميع، وبنفس الوقت لا يمكن للموظف أن يتذكر الوجوه التي تتدفق عليه كل يوم أسرابًا أسرابًا.

أكّد الرجل قوله بعدما وقف قبالة آواز، وتفحّصه من أعلى رأسه حتى أخمصي قدميه.

- وهو من قرية كركوش.

أبدى الشاب الملثم سروره وهو يقول:

- كركوش معنا.

وأخرج مسدسًا كان معلقًا بخاصرته وقدمه لآواز.

- خبئه معك، سوف نُخرجك من هذه الورطة، وسوف تعود إلى أهلك هذه الليلة.

تلعثم آواز وهو يقول:

- كيف ذلك وقد أخذوا معلوماتٍ كاملةً عني؟

دسَّ الشّاب الملثم المسدسَ تحت النطاق الذي يطوق خاصرة آواز، وأخرجَ أطرافَ القميص من تحت البنطال، وجعله يتدلى كي يغطّي المسدسَ تمامًا، وقال:

- ستذهبُ الآن إلى نقطة التفتيش، وتخبرهم أنك شاهدت محلًا لبيع الأوائل الصحية، ووجدتَ في المحل رجلين كهلين لا تبدو عليهما أية مظاهرَ غريبة، بل كانا يدخنان النرجيلة ويتسامران، وإنك لم تشاهد في الجوار ما يثير الشبهة، سنكون قريبين جدًا منك، على بعد أمتار فقط، عندما يدخلونك الغرفة ستتحين الفرصة لتُخرج مسدسك المحشو وتصوبه إلى الضابط، وتهرع إلى

الباب فتقفله فورًا، ثم تقتله. وعندما نسمعُ صوتَ دويّ الرصاص سنهاجم جميعًا ونقتل كلّ من في الخارج لأنهم سيهملون المراقبة ويتوجّهون إلى باب الغرفة.

كان آواز يتخيّل هذه المشاهد، وهَولَ الورطة التي ألّمت به، وفظاعةَ الأحداث التي تُوكل إليه، وتصاعدَ وتيرة القلق والرّعب لديه: هل حقًا أستطيع أن أُخرجَ المسدّس وأُشهِره في وجه ذلك الضابط؟ ثم أضغط بسباتي على الزناد؟

- اسمع يا آواز: قرية كركوش لم تقدم حتى الآن شيئًا للثورة، وقد آن الآوان كي نتحقق من نواياكم، هل أنتم حقًا معنا.

رفع آواز رأسه وهمس:

- كركوش قرية محايدة لا تريد الخوض في هذا القتال.

صرخ الملثم للمرة الأولى:

- الحرية لن تكون لنا وحدنا.

واقترب منه ودفعه نحو نقطة التفتيش قائلًا:

- إذا نجحت في هذا الأمر ستعودُ هذه الليلة إلى بيتك، ولن يعلم بأمرك أيّ مخلوق، أما إذا وصلت إلى نقطة التفتيش ولم نسمع دوي الرصاص فسوف يكون لنا كلامٌ آخر معك.

تذكّر آواز أنه سمعَ نفسَ التهديد من ضابط نقطة التفتيش.

(إذا قُتل الضابط الآن فسوف يخلص من التهديدين)

دفعه الشاب الملثم صوبَ نقطة التفتيش قائلًا:

- نحن خلفك على بعد أمتار، ننتظر سماع دوي الرصاص حتى نهاجم.

كانت الأرضُ سهليةً، والتراب يتسلل إلى حذائه، وخطواته تبدو ثقيلة، والظلام يُخفي كلَّ شيء إلا الأضواء التي كان يبتعد عنها وأضواء نقطة التفتيش التي تبدو له من بعيد.

(إذا أخبرتُ الضابط بما رأيت فإنني أشارك في قتل هؤلاء الشبان المسلحين، وإذا حاولتُ قتله فلن أخرج حيًا من نقطة التفتيش).

لا يجدُ آواز متسعًا من الوقت كي يحلم بالعودة إلى البيت، ولا يجدُ مكانًا في قلبه كي يحسَّ بإحساس العودة إلى البيت. حقًا نعمٌ كثيرةٌ لا نُدرك قيمتها إلا حينما نفقدها. (متى كنتُ أحمدُ الله وأشكره على نعمة العودة إلى البيت سالمًا؟).

الآن يبدو البيت أبعد من القمر المختبىء في الجانب الآخر من الكرة الأرضية. لو أن هاتفه الجوال بحوذته الآن، كان سيجري مكالمة خاصة تجلب له الطمأنينة، صوتٌ وحيدٌ كفيل بأن يجلب له الطمأنينة. لكنَّ الهاتف النقال أيضًا صار حلمًا.

كانت هذه فرصة كبيرة له كي يتطور من إنسان وادع صامت إلى إنسان عنده أيضًا بطولات يحكيها لأولاده وأحفاده.

في الديوان العام جميع أوراقه على الطاولة، أوراقٌ سرية كثيرة موجودة في خزانته، حاسوبه الشخصي متروكٌ على الطاولة، بمجرد إقلاعه يمكن لأي شخص أن يفتح جميع حساباته في مواقع البريد الإلكتروني أو مواقع التواصل الإجتماعي، فجميع كلمات المرور تلقائية.

أحسَّ بقشعريرة باردة سرت في عروقه وهو يتخيل الكارثة، شعر بنفسه يبدو عاريًا للجميع، أراد أن يهرب من كل شيء.

وقف الشبان الملثمون على مقربةٍ من نقطة التفتيش مستترين بوشاح الظلام الدامس، وقد تأهبوا للهجوم بمجرد سماع دوي الرصاص. كانت قلوبهم تخفق بسرعة شديدة، فأي خطأ سوف يودي بحياتهم، حتى قائدهم كان مضطربًا وقلقًا حيث قال هامسًا:

- الوقتُ الذي مضى أكثر مما يحتاجه آواز.

أجابه شابٌ بجواره:

- أخشى أن يخذلنا ويخبرهم بخطتنا.

أجابه القائد:

- وهذا ما أخشاه أيضًا، سننتظر دقيقتين فقط.

يمكنك أن تعتمدَ على ضربات قلبكَ في تقدير الوقت، وتعدّها بكلّ حذرٍ لتعلمَ أنه قد مرَّ من الوقت دقيقتان.

- انسحبوا لن نهاجم، فشلت الخطة.

في محل الأوائل الصحية كان الشاب الملثم يستشيط غضبًا، ويقسم ويتوعد بأنَّ موظفَ الديوان العام لن يفلتَ من يديه مهما كلفه الأمر. (ثم بدؤوا يفكرون في خطة أخرى)

أما ضابط نقطة التفتيش فقد قال لعناصره:

- يبدو أنّ صاحبنا لن يعود إلينا.

أجابه معاونه: سوف نعمم بطاقته الشخصية على جميع الحواجز لنقبض عليه.

قال الضابط: لكنّه ليس صاحب البطاقة، إنه آواز حسن موظف الديوان العام.

(ولا يزال البحث جاريًا عن المواطن الحيادي الخائن)

-4-

جَمْر كانون

إنّ للعبودية ضحايا وهي عبودية
أفلا يكون للحرية ضحايا وهي حرية
محمد إقبال

«رحمةُ الله عليك يا أبا صطيف، لقد أمسينا دَحَلًا، نتطاير بين هذين السفحين الزرقاوين، ونتدحرج مع المياه الآسنة، ونرتطم بالصخور فوق كل منحدر ومنزلق، رحمة الله عليك يا مختارنا، لكني لم أعد تحت مجاهرهم، وبات كرسي التعذيب أضحوكة أمام معاناتنا اليوم»

كان مستلقيًا على ظهره يتجرّع بعض ذكرياته القريبة، ويتناسى السعال وضيق التنفس، ويراقب أولاده يعبثون بثقوب الخيمة؛ ويريدون توسعتها ليراقبوا من خلالها كافة أنواع اللعب، لعب الصغار والكبار. ويستعرض الأعياد التي مرت به بعد ذلك العيد المشهود الذي تحول إلى ثورة، ولم تعد زوجته تفكر في شيء. لَكَمَ يتمنى لو أنها تصرخ الآن وتقول: (وجدتها).

داهمه سعالٌ عنيف قبل أن تصرخ زوجته فجأةً كزعيق صفارة الإنذار:

- إنها سيارة الخبز، انهض بسرعة لتجلب لنا حصتنا.

نهض دون تلكؤ، كي يضمن مكانه في المعمعة اليومية، ودفع باب الخيمة الممزّقة وهُرع نحو الهرج عند ساحة المخيم؛ ليجد أفواج البشر تنهال من كل حدب وصوب، مع نمو المشاحنات وبروز الصرخات والشتائم. كالعادة بدأ يحس بضربات قلبه الثقيلة، وصوت

أنفاسه، والانقباض المريع الذي يطوق صدره في أعلاه، وهو يحاول أن يكبح جماح سعاله.

عليه أن يتحمل بجسده الهزيل تزاحم الأجساد المعروقة برحابة صدر، ويصم أذنيه عن شتائم رئيس المخيم، ويظل صامتًا يتناسى الأمر المعتاد، ويدعو الله ألا يشعل أحدٌ سيجارة بقربه.

لاتزال نفحات الهواء تلسع زوايا قصباته جيئةً وذهابًا، محملة بغضب كانون الذي يهابه. يلفّ منديله حول رأسه ليتبقى نصف وجهه العلوي مكشوفًا كأنه نصف تاريخ، اهترأ منه نصفه الآخر. لقد عانى مرارًا من الأمر، فبقاء المنديل على وجهه يحبس عنه الهواء فيزداد صدره انقباضًا، وسرعانَ ما يضيقُ ذرعًا ويزيحه عن أنفه ليتنسّم الهواء البارد اللاذع. يثبت بصره في مقدمة الحشد عند العامل في صندوق السيارة الشاحنة، وهو يرمي ربطات الخبز، فتتطاير فوق الرؤوس والأيادي التي تتسابق لالتقاطها، كأنها هدايا السّماء في يومٍ ملبّد. بينما يصرخ رئيس المخيم بأعلى صوته:

- متى تصبحون بشرًا؟

لا أحد يجرؤ على الإجابة. تسقط كلماته اللاذعة كأنها ذرق عصافير تائهة، لا تجد رؤوسًا تتألم أو تُخدش منها.

يصرخ مجددًا:

- الكمية ستخفض غدًا. قللوا وجباتكم.

لا يمكن السكوت على هذا الأمر، تخفيض كمية الخبز تعني مجاعة في المخيم. وسرعان ما بدأ الاعتراض:

- لا يمكن، إننا لا نأخذ احتياجنا حتى تخفضوا الكمية.

- لا نقتات سوى الخبز، أتحرمونا منه أيضا؟
- هذا ظلم، هذا تجاوز، هذه سرقة في وضح النهار.

كانت جميع هذه الأصوات الثائرة تدور في أروقة قلوبهم وعقولهم دون أن يتفوهوا بها. ومن يجرؤ؟!

عاد صوت رئيس المخيم الجهوري يلعلع فوق رؤوسهم:

- الكمية تنخفض بسبب زيادة أعدادكم أيها الأوباش.

هل ستكفي أنفاسه حتى الوصول إلى هناك والتقاط ربطة الخبز حصته؟

بدأ يحس بانقباضٍ شديد، حين شعر بدموع باردة على مقلتيه، لم يكن بكاءً وألمًا من توبيخات رئيس المخيم، أنفاسه تخرج من ثقب إبرة، كمية الهواء حصته تنخفض أيضًا، تبدأ صورة رئيس المخيم بالتلاشي، تنخفض كمية الضوء، لا غيوم في السماء، يخبو ضجيجُ الناس من حوله على حساب الضجيج المتزايد داخل صدره، يجتاح الهواءُ قصباته كأنه حطام زجاج يخدش تفرعات قصباته الضيقة، تمنع تغلغل الهواء في صدره، وتحبسه من الخروج.

رائحة دخان...

«دخان السجائر يتسلل إلى أعماقي»، يحاول أن يصرخ.

يصدر عنه صفير كمكابح سيارة صدئة، وسرعان ما يهوي على الأرض في غيبوبة تامة.

اندفع إليه بعض الرجال يريدون إيقاظه.

صرخ أحدهم:

- اطلبوا النجدة من النقطة الطبية.

هل تجتاح رئيس المخيم رعشة المسؤولية فينكبّ مع جنوده لإنقاذ أحد رعاياه؟

التفت الناس إلى بعضهم ينتظرون المبادرة.

تمتم أحدهم: أنا أنتظر دوري.

جالت العيون بين الوجوه، تقلّبت ما بين الرجل الممدد على الأرض وبين وجه موزع الخبز.

لم يعر البعض أي اهتمام لما يحدث؛ وهل بات سقوط رجل بين أيديهم يعني لهم أي شيء، لقد سقطت مدن بأكملها، سقط تاريخ برمته، سقطت أقنعة بالجملة، سقطت قذائف بالأطنان، سقطت أسقف على أعمدتها، سقطت ضمائر على أصحابها. ماذا يعني سقوط رجل ضمن طابور الخبز في مخيم منسي؟

منذ يومين فقط سقط طفل هنا في نفس المكان صريعًا، أصابته طلقة في شجار عابر عند توزيع الخبز. كان الناس يدعسونه بأرجلهم وهم يتدافعون نحو خبزهم المعجون بعصارة المذلة، لم يعنِ لهم الأمر شيئًا يذكر.

قبلها بأيام قُتل العشرات في خيمهم بطلقات طائشة قادمة من نقطة اشتباك. ماذا يعني سقوط رجل في ثورة الخبز؟

- ماذا نفعل يارجال؟
- أنتم يا شباب ألم تستلموا حصتكم، احملوه إلى النقطة الطبية.
- فلنصبر قليلًا؟ قد يفيق من غيبوبته. قد يسعفه رئيس المخيم.
- إنه لا يتنفس، وجهه صار أزرقًا كلون خيمتنا، هيا اركضو به يا شباب.

رنا أحدهم إلى موزع الخبز، ثم جال ببصره في الحشد المتلاطم كموج بحر هائج في أعماقه حيتان جائعة، ولوهلة دبّ فيه العزم وبادر في المساعدة، لن يستغرق إسعاف الرجل أكثر من مشاحنة رعناء، وسيكون لديه الوقت الكافي كي يعود ويأخذ حصته من الخبز.

«ما حييت لن أنسى ذلك الصباح الذي رأيتُ فيه الموت بأم عينيي وسلمت عليه وسلم عليّ. يومَ فقدنا أبا صطيف درويش والمختار وغيرهم من شباب القرية.

أنفاسي تضيق أكثر وأنا أذكر تلك اللحظات المريعة، حينما بدأت قذائف المدفعية تنهال على القرية مع أولى إشعاعات الشمس، لتقوم قيامة القرية، وينتفض الناس مذعورين؛ يبحثون عن طرقات الهروب كدجاجات فزعة باغتتها الثعالب في مزرعة مباحة.

تزعق زوجتي كإحدى القذائف:

- علينا أن نخرج بسرعة.

يزعق أولاي:

- بسرعة يا بابا.

يختلط عليّ الأمر، ولا أدري أي درب نسلك، ولا أي منقلب سننقلب. الطريق الوحيد الذي يمكن أن نسلكه هاربين أصبح هدفًا للقذائف. الهروب بعيدًا عن الطريق عبر الأراضي المكشوفة يعرضنا لخطر أفدح.

هل يستطيع الأولاد الركض تحت إيقاع القذائف؟

يضيق صدري وينطلق سعالٌ جاف ثقيل تدمع له عيناي، تسقط قذيفة على مقربة منا، ويضيع صوتها بين صرخاتنا. نسمع أصوات الشظايا ترتطم بجوارنا كالمطر.

- يجب أن نخرج بسرعة.
- إذا خرجنا نكون عرضة للقذائف.
- إذا بقينا سنكون فريسة للوحوش التي ستهجم بعد القصف.
- لا بد أن نخرج.

وسرعان ما وجدنا أنفسنا في الخلاء، تغوص أرجلنا في التراب، يسقط الأولاد مع سقوط كل قذيفة، لا تقوى أرجلهم المرتعشة على حملهم، يحتضن كلٌ منهم حقيبته التي جمع فيها ميراثه الطفولي، نهوي إلى الأرض كلما سمعنا أزيز قذيفة قادمة، ننهض راكضين عندما نجدها هبطت بعيدًا، نبتعد عن القرية مستسلمين لكل الأقدار. مئات الناس على أطراف القرية يهربون مثلنا.

- هل هي القيامة؟
- لا، إنه قصف مدفعي يسبق هجوم المشاة.
- أتعني أنهم قادمون؟
- انتبهوا... طائرة ميغ 29
- لا ... إنها سوخوي سو 24

انتهى طريقنا يومذاك إلى مخيم فوق الأرض، في حين انتهى طريق الكثيرين إلى مخيمات تحت الأرض.

نقول: الحمدلله. ستأوينا خيمة، هل الخيمة ترد القذائف؟

- الخيمة هي انسلاخ جديد ومرحلة اكتشاف الذات.
- هل انسلختُ الآن من فقري؟
- جميعنا انسلخنا من الماضي، لنبدأ رحلة البحث عن الحاضر.

- كيف أحصلُ على خيمةٍ هنا؟
- من رئيس المخيم.

ارتعدت فرائصي وأنا أتخيل كيف يمكن أن أمثل أمام ضابط في فرع أمني يوم قال لي المختار (إنك تحت مجاهرهم)، لم يحدث ما تخيلت يومذاك، إلى أن وقفت بين يدي رئيس المخيم، فنضحت بذاك الشعور.

أمرني أن أستأجر خيمة.

- قالوا لي إن الخيم توزع مجانًا.

لعلعت ضحكته الجنونية، وبانت أسنانه المصفرة وهو يقول:

- مجانًا، نعم كلكم تتهافتون إلى المجّاني.
- ممن أستأجر خيمة؟
- من رجل يسكن القرية، الخيمة مسجلة باسمه، وبطاقة الدعم أيضًا بحوذته. لكني موكل بالأمر لا تقلق.

استلمت خيمتي، ولملمت شمل أطفالي تحتها، ثم خرجت أبحث عن رغيف خبز... هل توجد صيدلية في المخيم؟

- صيدلية؟ أين تظن نفسك؟
- قد نحتاج بعض الأدوية الإسعافية.
- توجد نقطة طبية أشبه بنقطة عسكرية، تقوم بمعالجة أمثالك.

كيف يمكن للحياة أن تستمر دون وجود أدوية إسعافية كتلك التي أواظب عليها؟

بعد أيام قليلة استطعت حقًا الانسلاخ من تاريخي، والانحدار إلى اكتشاف حالات أخطر من حالتي، حالات انسلاخ بالجملة، حالات تشوه عميقة، أطفال أصيبوا بصدمات نفسية، أو رهاب الأصوات العالية، وحتى حالات جنون. تعرفت على رجل فقد ابنه الوحيد أمامه، كان كجبل أقرع عرّته مياه السيول منذ الأزل. وطفل في الخامسة من عمره انتشلوه من تحت الركام، بينما بقي كامل أفراد عائلته هناك، لم ينبس بكلمة، ولم تسفر ملامح وجهه عن أي تعابير، ولم أستشف منه أي مشاعر، كان جامدًا كحجر. باردًا كقطعة من الجليد. بينما اكتشفت زوجتي أن الحياة هنا مستحيلة، الخيمة لا تمنع نظرات المتطفلين، ولا أصوات الخيمات المجاورة، لا في النهار ولا في آخر الليل، لا تمنع مياه المطر، ولا حرّ الشمس، لا تمنع شيئًا من نعم الطبيعة، الخيمة وهْم، إنها غشاء عنكبوت في صحراء قاحلة.

همست لي ذات ليلة:

«لا تتركني وحيدة بالله عليك، لا أريد أن أصبح أرملةً هنا».

أجبتها وفي قلبي غصّة:

«فلتكوني بجواري عند كل نوبة».

لا أعلم إذا كنتُ حقًا أشعر بأنّ هناك حالات صحية أخطر من حالتي، إذْ إني بدأتُ أهابُ المكان حقًا، ومع قدوم الشتاء يزداد استعمالي للبخّاخ، وعندما ينتهي ما بحوزتي سأكون فريسةً نوبةٍ حادةٍ قد تقضي عليّ إنْ لم يسعفوني بحقنة وريدية.

«ترى كيف سيكون حال العيد في المخيم؟ وهل سأرسم البسمة على وجوه أولادي الشاحبة المشدوهة؟»

أمام النقطة الطبية كان هناك طابورٌ آخر، صاحَ الرجل بأعلى صوته:

- حالةٌ إسعافيةٌ، الرجلُ يموت.

أفسَحوا له الطريق بامتعاض، ليس هو وحده من يموت.

ألقاه على السرير وهو يقول للطبيب:

- أنا لا أعرفه، سقط فجأةً أمام سيارة الخبز، يجب أن أعود لأنال حصتي.

قطبَ الطبيب حاجبيه وصرخ:

- لا تتحرك قبل أن آذن لك.

تفحّصه الطبيب على عجل، وبدا أنه شخّص الحالة وعرف العلّة.

- قلتَ إنك لا تعرفه، كيف آخذ بياناته الشخصية؟ هيا اذهب واسأل عن أحدٍ يعرفه.

- قد نعثر على بطاقته الشخصية، افحص جيوبه يا دكتور.

وسرعان ما بدأ الطبيب بتفتيش الجيوب الخارجية والداخلية حتى أمسك البطاقة بيده وأمعن فيها النظر، ثم مضى بها إلى غرفته ليدوّن البيانات على حاسوبه.

التفت الرجل إلى الخارج، ضاق صدره ذرعًا بهذا الطابور المتهالك، يا إلهي إذا ذهبت سيارة الخبز فلن يقرضني أحدٌ رغيفًا واحدًا.

اقترب من صاحبه الممدد على السرير، راقب ملامحه التي تكاد تشبه ملامح الطابور، تجاعيد تصطف خلف بعضها البعض في جو مكفهر بالغيوم الداكنة، تنذر بالرعد، أو بالبرق الخاطف. يا إلهي، هذا الرجل خسر حصته من الخبز، بينما أولاده ينتظرونه.

هزأ من نفسه وهو يمد يده إلى صدر الرجل: هذا الرجل يكاد يفارق الحياة، ماذا تعني خسارة حصة الخبز ليوم واحد؟

أمام مصائب الآخرين تنسى حقًا مصيبتك. كيف كنتُ أفكر بالعودة سريعًا لسيارة الخبز وأتركه هنا وحيدًا؟ سامحني ياربي!

عندما دخل الطبيب إلى غرفته الخاصة التي لاتزيد عن ثلاثة أمتار مربعة، كان يعلم أن المريضَ يعاني من نوبة ربو حادة، ويحتاج أدوية التخفيف السريع مثل الكورتيكوستروييدات الوريدية أو إبيراتروبيوم أو ناهضات بيتا قصيرة المفعول. لكنه قبل أن يهمّ بأيّ إجراء إسعافي أسرع إلى درج مقفل؛ فتحه وأخرج منه سجلًا صغيرًا وضعه على الطاولة، ووضع بطاقة المريض أمامه، وأحنى ظهره ليمعن ويمحّص الأسماء المدونة في القائمة الطويلة.

الأسماء التي كانت قد وُضعت تحت المجهر.

-5-

سوخوي

وحدهُم الشُّهدَاء لا يختالُون بالأوْسمة
محمد الماغوط

تفقّد هاتفه النقال، ولمحَ التاريخ بالخط العربي العريض وسط الشاشة: (**العاشر من شباط**) التاريخ المنتظر.
دسّ الهاتفَ في جيبه، مطمئناً لضبط الموعد وذاكرته الجيدة وهو يمشي على طريق ترابي يوصله إلى سيارة البيك آب التي تنتظره.
كانت الشمس على وشك أن تبزغ في الأفق الشرقي الذي بدا كحزام برتقالي يتمدد ويلتهم اللون الرمادي من بقايا الفجر.
أحكم عبد الستار أزرار سُترته، ورفعُ ياقةَ كنزة الصوف التي لاصقت جسمهُ لشتاءات ستة، ووضع القبعةَ على رأسه المغطّى بالشعر الأسود الذي وخطه بعض الشيب من الأهوال التي مرّت به خلال السنتين المنصرمتين. بعض أقرانه لا يزالون يحتفظون بنفس النضارة ولون الشعر، بعضهم الآخر شاب أكثر منه، وتجعّدت وجوههم وهم في مقتبل الشباب... كلٌ بحسب همّه.

أراد أن يشعل سيجارةً يكافىء بها نفسه، مدّ يده إلى جيب السترة العلوي، لكنه فوجئ به فارغاً من أية علبة سجائر، ربّت على جيبه العلوي الآخر في حين داهمته صرة العلبة فوق الطاولة في غرفته الموحشة بجوار كأس الشاي نصف المملوء، لم يدسها في جيبه، بقيت هناك وحيدةً، وافترق عنها دون وداع.

افتقدها طيلة أسبوع، كان الحصول على علبة سجائر في هذه الظروف أشبه بالعثور على كنز، ضِف إلى ذلك عوزه للنقود، عفّت نفسه عن السؤال، فهو يدرك تعلق المرء بسيجارته اليوم، كيف يسأل امرءًا سيجارةً؟ لو كانت بحوزته علبة سجائر وسأله سائل سيجارة واحدة فقط لضنّ بها وآثر نفسه. فكيف يطلب من الآخرين؟

عندما أخذ مكانه إلى جوار السائق أدرك أنه لا مندوحة من الفراق، سيمضي رحلته بلا تدخين، ليتحمل ضغط الأعصاب، وضغط هوى النفس، قد يلمح السيجارة عبر نافذة السيارة تمشي معه، أو يتخيل أغصان الأشجار وجذوعها انقلبت سجائرَ قابلة للاشتعال، سينتعش بدخانها المتصاعد مع عادم السيارة. وعند أول نقطة تفتيش سيشي بها ـ علبة السجائر ـ ليقبضوا عليها ويريحوه منها.

مدّ يده إلى جيب السترة الداخلي، ليتفقد شيئاً أهم من علبة السجائر، شيئاً حرص عليه طوال السنتين السابقتين، ميراث زوجته، ذكرى عبقة بقيت منها تدق في عالم النسيان، جالت يده في جيبه، تصاعد الدم في عروقه وارتعش كل جسمه، صاحَ في قرارة نفسه: يا إلهي أين الـ ...؟

مدّ يده إلى جيبه الأيسر، تفحّص جيبَي سترته عشرات المرات، جيبَي بنطاله، هل نسي جيوباً أخرى يتفحصها؟

- أين اختفت؟

التفت إلى الوراء، كانت السيارة تشقُّ الطريق، وتخلف خلفها غمامةً من الغبار والدخان الأسود والضوضاء، التفت إلى السائق وصاح بأعلى صوته:

- قف.

توقف عبد الستار عن العمل بعد وفاة زوجته بشهرين، كجميع عمال المعمل، بل كآلاته كافة، حينما اختفى صاحب المعمل في ظروف غامضة، ولم يعلموا عنه أي خبر، هل خُطف؟ قُتل؟ سُجن؟ ولا أية معلومة واحدة تشير إلى شيء. توقف المعمل، وتفرغت الزوجة للسؤال عن زوجها هنا وهناك، لم يبرحها عبد الستار وحيدةً، بل وقف إلى جانبها في تلك الأيام، وراح يسأل كل أصدقائه ومعارفه، ومن له أدنى صلة بقادة الكتائب والمجموعات، بينما حاولت الزوجةُ التقاط بداية أي خيط بسؤالها بعض ذوي النفوذ في الدولة، لا أحد أعطاها أملاً، ولا حتى جذوةً من أمل.

بعد سنتين كلّت المرأة، وكادت تفقد أملها في العثور على زوجها الغائب، وكلَّ عبد الستار.

ليس صاحبُ العمل وحده من غاب بلا خبر، كل يوم هناك حالات مشابهة، يجب أن ترضى المرأة بقدرها وتقعد مع القاعدين والقاعدات.

لم يكن ليتجرأ على نصحها بذلك، فالمرءُ يتعلق بقشة من أمل ولا يرضى بفقد الحبيب، هل هو راضٍ بحاله؟ هل صمت وقعد؟ في رأسه ألف خطة وحيلة يقلبها في عقله طوال الوقت كي يحسّ بنوع من الرضى، كي يقول لزوجته حين اللقاء:

لقد ثأرت لدمكِ يا زوجتي.

كيف ينصحها وقلبها يفيض ألماً؟

اتصلت به ذات صباح، وقبل أن يضغط على الزر الأخضر كان قد جهز جوابه لها، فستسأله إن كانت بحوزته أية معلومات عن زوجها، وسيقول لها: بكل أسف لا يوجد أي شيء.
ضغط على الزر الأخضر واستمع لصوتها:

- عبد الستار، أريد منك العون في اجتياز الحدود نحو تركيا.

تلعثم دون أن يعرف كيف يجاوبها، الجواب الذي جهزه كان لغير هذا السؤال، تدفقت في صدره مشاعر متضاربة، هل يوبخها؟ هل يشد على يديها ويقول لها: حسنًا تفعلين، فالحياة لن تتوقف بفقد حبيب.
لم يستطع قول شيء من ذلك سوى أنه وعدها بتحقيق طلبها.

أردفت المرأة قائلةً:

- وأنت يا عبد الستار، ماذا ستفعل هنا؟

أجابها على الفور:

- أنا هنا بجوار أمي وأبي، بجوار قبر زوجتي.

وتغيرت نبرة صوتها وهي تقول:

- الدنيا هائجة مائجة، والطيران لا يعزب عن نملة.
- سنستنشق هذا الهواء مادامت لنا بقية من روح.
- لِم لا تمضِ معنا إلى مدينة عنتاب، ستعمل هناك، وتساعد أهلك. بقاؤك هنا لم يعد له جدوى.

فكّر في كلامها طيلة ليلتين، أنفق فيهما علبة سجائر كاملة، ثم استشار أبويه، بكت أمه وسحّت عيونها عن دموع باردة، بينما طأطأ والده رأسه وهو يقول: «يسّر الله أمرك يا ولدي».

لفّ الأساور الثلاث بقماش قصّه من ثوبٍ لزوجته المرحومة، وهو يقول لأمه: «هذه الأساور ستبقى معي».

لا يزال يتنسم منها رائحة زوجته، يتكلم معها، يلمسها، يعانقها، يسمع صوتها، كأنها لا تزال في معصمها. لم تفارقه البتة، وهو يداري قذيفة مدفع، أو يهرب من أزيز طائرة سوخوي. حافظ عليها في بعض الأوقات أكثر من حفاظه على روحه، ظلّ قابضًا عليها وهو يرتج تحت وطأة صوت الطائرة المرعب، ويتخيل كيف تذوب على جثته المتفحمة لتترك بقعة برّاقة تلمع تحت وهج الشمس، هي آخر أنفاس زوجته. نزعتها أمه من يدها الخاوية قبيل دفنها، واحتفظت بها لأيام ثلاثة، جاءت بعدها إلى ابنها المسكين ودستها في جيبه وهي تتمتم:

- هذه أساورها ياولدي، فلتحفظها عندك.

مسح عنها الدم المتخثر، وتأملها من خلال الدموع، شعر لوهلة أنها لاتزال على قيد الحياة، وعبقها يملأ المكان. شدّ قبضته عليها كأنه يقبض على معصمها ويمنعها من الرحيل، غسلها بدموعه وجففها برموشه، ثم أسكنها زاوية من قلبه. بقايا روح زوجته. ستبقى معه في رحلته إلى عنتاب، ليتحدث إليها كل مساء، ويغمض جفنيه للكرى قبالتها مرتاح البال.

سيقول لها: هل تذكرين صاحب المعمل؟ ذلك الشخص الذي كنا لا نجرؤ أن نحلم يومًا بأن نكون مثله؟ لقد ضاع، أحمدُ الله أني لست مثله، فقدَ كل شيء، طار معمله يازوجتي ككل شيء قابل للطيران. وأرهقت زوجته وهي تركض يمنة ويسرة حتى فقدت الأمل، وها هي ذي ترسم طريق الرحيل، قبل أن تعرف لزوجها قرارًا. طوت

أيامه في ذاكرتها، وضعتها في علبة كرتونية وأغلقتها بشريط لاصق، ورمتها في أحضان سيارة شحن لن تعود.

طلبت مني مرافقتها، أمّنتُ لها الطريق، وسألتقي بها عند المعبر؛ لنمضي سويًا إلى مدينة عنتاب.

تقول إنها ستبدأ بدايةً جديدة، كيومٍ جديد تمحي شمسُه آثار ظلمة الليلة الفائتة. أعجبُ من قدرتها على تجاوز المعابر، أخالها تتآلف في ليلة واحدة مع خشونة الصحراء، ثم تعتاد في الليلة التالية رطوبة البحر. تضحك بعد بكاء، ثم تبكي كأنها لا تعي معنى الضحك.
تمسك بيد أطفالها كأنها لبوة تقود أشبالها إلى ميدان التدريب على فن الافتراس، افتراس الأيام الصعبة في الزمن الموحش.

ها هي ذي تقنعني أيضًا بأن أمضي معها، لأبحث عن غدٍ جميل، وأنسى كل المحن، هل المحن تُنسى يا زوجتي؟ هل الدماء التي سالت من جبهتك تصيرُ ماءً يتبخر ويتلاشى؟ هل هذه الكتلة النامية من الألم، المعشعشة في سويداء قلبي قابلةٌ للذوبان هناك، ما وراء الحدود؟ هي تقول نعم، أما أنا فلا زلت خائفًا.

أخاف الفاقة وجور الأيام، أخشى أن يدفعني الجوع لبيع الأساور، عندها أكون قد بعت بقايا الحنين، وبقايا الماضي. لكنها قد ترأف بي، قد تعرض عليّ الزواج هناك، قد تقنعني بنفسها كما أقنعتني بالرحيل، ولِمَ لا وهي الوحيدة ضاع عنها زوجها؟ وأنا الوحيد ماتت عني زوجتي. أخافُ من كل هذه الأوهام التي تداهمني، لا أريد أن أخون عهدي معك، كما لم تخوني عهدك معي.

الطريق إلى معبر باب السلامة خطر جدًا، قد يمر على نقاط اشتباك، قد تأتي طائرة ميغ 23 أو سوخوي سو، وتبدأ قصفًا مريعًا، والطائرة تستهدف أي هدف متحرك على الطرق المؤدية إلى البوابة. العاشر من شباط ستكون المرأة مع أولادها هنا بانتظاره بعد أن أودعها قرية سجو القريبة، واتفقا على موعد العبور إلى الأرض التي يأمنون فيها قصف الطيران والمدافع.

- قف.

صاح عبد الستار بأعلى صوته، وهو يتوجّه إلى سائق السيارة من طراز بيك آب.

كبح السائق جماح سيارته وتوقف على قارعة الطريق إلى سجو.

- مابك يا عبد الستار؟

- الأساور. ليست معي.

ضحك السائق ملء فيه دون أن يستطيع الكلام.

- لقد أضعتُ الأساور.

هدأت ضحكة السائق قليلًا، وهو ينظر في المرآة الجانبية ويقول:

- أيها الغبي، أنسيت أنك تركتها لدى السيدة صاحبة المعمل؟ لتكون معها عند المعبر، درءاً لأي إشكال أثناء التفتيش.

تذكر عبد الستار من فوره أنه دسّ الأساور الثلاث في يد المرأة وهو يقول لها: هذه بقية روحي، سأستلمها منك حالما نجتاز المعبر ونطأ أرض تركيا.

تذكر أنها هزت رأسها مبتسمة. ثم قالت: العاشر من شباط، لا تتأخر.

هدأ روعه قليلًا بعدما تلاشى خوفه من فقدان الأساور، سيلتقي المرأة بعد قليل في قرية سجو، ويصطحبها إلى المعبر ويمضيا إلى أرض الميعاد، وحالما يجتازان المعبر سيستعيد منها الأساور ويدسها في جيبه لتعود قريبة من قلبه.

- قرية سجو على مرمى حجر. قال السائق وهو لا يزال ينظر في المرآة الجانبية على يساره، ثم ما لبث أن غيّر ناقل الحركة ليقلع ثانية ويعاود طريقه.

ظلّ عبد الستار صامتًا يحاول أن يضبط أعصابه ويسيطر على التوتر الذي سطا على خلايا جسده. كيف استطاع أن يعيش الأيام الماضية بمعزل عن رائحة الأساور؟

شعر بانقباض شديد في صدره، وبدأت الدماء تصعد في عروقه فتنتفخ أوداجه وتكسو وجهه سحابة من الألم والسدم، إنه الآن في طريقه إلى خارج البلاد، تاركًا رائحة الأحباب تفوح بين صخور المقبرة دون أن يثأر لها، في البداية حاول أن يحدد حجم الثأر، فأخذ ورقة بيضاء وراح يدون فيها الجرائم التي يعرفها عن كثب، والتي توجب الانتقام. ثم راح يبحث عن الطريقة الأنسب للأخذ بالثأر، فوضع أيضًا جملة من الخطط التي قد تروي غليله، استطاع الوصول إلى قادة بعض الكتائب والفصائل، وعرض عليهم خططه، التي لم تجد منهم ترحيبًا كافيًا؛ ربما لكونها جنونية أو غير مدروسة بشكل دقيق، أو غير مرغوب فيها. بحث عن وسائل أخرى، عن منافذ جديدة، عن سبل غير اعتيادية، بتصميم يتنامى يومًا بعد يوم بأخذ الثأر، وهو يجد في نفسه رغبة في الحياة بجوار رائحة الأحباب، ترضي ضميره وتحقق مبتغاه.

إلى أن قالت له زوجة صاحب العمل:

«وأنت يا عبد الستار ماذا ستفعل هنا؟»

إنه الآن يترك كل خططه خلفه، كالغبار المتصاعد خلف السيارة. هل عزفتُ عن مبتغاي؟ هل أهرب من نفسي لأتبدد كرائحة الأموات؟ هل انتهى عبد الستار؟

كانت عيونه تنظر بجمود عبر نافذة السيارة إلى المساحات التي تجري إلى الخلف لتبقى وحيدة في بركة الألم، بينما كان السائق يقلب بصره بانتباه شديد بين المرآة الجانبية والسماء من أمامه، لتلتقي عيونهما في لحظة صمت صاخبة، مفعمة بالرعب.

ضغط السائق فجأة على الفرامل وهو يصرخ:

- طائرة سوخوي.

ارتعد عبد الستار وحاول تمييز الطائرة عبر زجاج النافذة، كان صوتها قد ملأ الأثير.

- ماذا نفعل؟

لم يجبه السائق، إذ سرعان ما انحرف عن الطريق كي يختفي بين أشجار الزيتون، فارتجت السيارة ومالت يمينًا ويسارًا وغاصت عجلاتها في التراب الأحمر.

صاح عبد الستار:

- أنا لا أراها، لكن صوتها يصم الآذان.

صاح السائق مرعبًا:

- فلنهرب بسرعة، انزل يا عبد الستار.

لم يدم الأمر أكثر من ثوانٍ خاطفة، وما كاد عبد الستار يفتح الباب من جانبه حتى انتهى كل شيء، عقب الصوت الهائل الذي مزق طبلتي أذنيه، فارتطم جسده بالأرض دون أن يعرف أنه تطاير من السيارة التي تحولت إلى حطام، تحركت أصابعه كأنها تنبض تحت وطأة الألم، فتح عينيه ليرى وجه السائق عالقًا بمقود السيارة، مضمخًا بالدماء، يخاله للوهلة الأولى وجه زوجته حينما أسند رأسها على ذراعه الأيمن، ومسح عنها الدماء، حاول مد يده صوب وجه السائق، لكنها لم تتحرك، كانت عالقة كأنها تبحث عن الأساور الثلاث، وتلاشت معالمه في الرماد والدخان الأسود ليغرق في غيبوبة سوداء خاوية.

ولم تكن هناك أية بقعة ذهبية لامعة تتألق على صدره.

-6-

ما حييتُ

ستشرقُ من جديد، بعد ذلك الغروب

«ما حييتُ لن أنسى ذلك الصوت البعيد»

قالها في نفسه وهو يمرُّ من ساحة الجامع الضخم المهيمن على الأبنية المجاورة، والذي يذكر الجميع بفاتح إسطنبول السلطان محمد الثاني. كان في عجلة من أمره، بقيت الصور الفوتوغرافية وتكتمل أوراقه التي سيقدمها لمفوضية اللاجين في طلبٍ للهجرة إلى أوروبا، جميع رفاقه يتمتعون هناك بالحرية.

(الموت ولا الحرية)

تذكر مقولته الساخرة التي كان يرددها مع رفاقه عقب كل مظاهرة بعد صلاة الجمعة. ويكتبها على صفحته في الفيسبوك، بل وينشر صور بعض الضحايا الذين تخلفهم المظاهرات ليكتب تعليقه الثابت تحتها (الموت ولا الحرية). كان واثقًا أن الموت هو سبيل كل من يطالب بالحرية، ويعتبر أن هذه الفوضى التي يسمونها ثورة ما هي إلا مؤامرة أريد بها التخريب.

رنّ هاتفه، أخرجه بسرعة وردّ على المكالمة:

- حياتي، عذرًا تأخرتُ في جمع أوراقي، والآن أبحث عن مصور فوتوغرافي، وحالما أنهي المعاملة سآتي إليكِ، انتظريني عند برج الفتاة.

أجابت الفتاة في الجهة المقابلة بامتعاض:

- ألن تغير هذه العادة البائسة، لم تلتزم يومًا بموعدك في الوقت المحدد مذ عرفتك.

أطلق ضحكة رنّانة جعلت المارة يلتفتون إليه ويزدرونه. بينما استمرت الفتاة في توبيخه:

- وهذه الضحكة أيضًا عليك تهذيبها وتشذيبها.

زادت قوة ضحكته التي نبهت شرطي المرور في الرصيف المقابل، بينما كانت الفتاة تغلق الخط وهي تقول:

- أنا بانتظارك، لا تتأخر عن موعدنا أكثر من خمس ساعات.

أغلق هاتفه وهو لا يزال مبتسمًا، كأنها أمامه، تخيلها وهي تقطب جبينها، تصطنع العبوس، كأنها أمه، في اهتمامها الشديد ومتابعتها الدقيقة لكل حركاته وسكناته، ينفر منها أحيانًا، إلا أنه يجدها تحيط به وتوثقه فلا يستطيع حراكًا، ربما لأن صوتها له وقعٌ غريب.

أفواج الناس تتدافع إلى ساحة الجامع من عدة جهات، من جهة ضريح الفاتح، ومن الجهة المقابلة عند مسجد أفضل زادا حميدالدين، ومن ناحية شارع فوزي باشا، وهم يجيبون صوت المؤذن العذب. بينما كان ينزل الدرج صوب الشارع الرئيسي مبتعدًا عن صوت الأذان الذي بات يزعجه.

قبل نحو ست سنوات كان مغرمًا بصوته وهو يرفع الأذان في جامع الحي، وكان يتمنى أن يصل صوته هذا إلى أقاصي الدنيا ويسمعه كل الناس، في الحقيقة ليس كل الناس، وإنما شخص واحد يبعد أكثر من مئتين وخمسين كيلو مترًا نحو الجنوب، في قلب مدينة حمص التي عشقها.

رفع رأسه نحو السماء لوهلة وهو يقول:

(ماحييت لن أنسى ذلك الصوت البعيد)

كان صوتها الرّخيم، يمتزج مع صوت قطرات الندى المتساقطة بجانبه حين كان يجلسُ مفترشًا كلَّ تقاليد الدنيا وعاداتها وواجباتها ومقتضياتها، ملتحفًا خياله الجامح، ورغبته في التحليق، حين يأتيه صوتها كنسمةٍ هادئةٍ باردةٍ، تنفُذُ من أذنيه إلى أعماق أعماقه، وتترك في كلِّ جسده رعشةً تكاد تشبه رعشةَ الحياة الأولى، أو رعشةَ الحياة الأخيرة، فينتفض قلبه هلعاً ويتسمّرُ في أوراق الوردة الوحيدة، يعدّها مرّات ومرّات، وهي تتساقط تباعاً في غفلة منه.

لم يجُلْ بخاطره بادىء ذي بدء أنَّ هذه الوردة ستميل بأوراقها على جدوله وتمدّ جذورها إلى أعماقه، فما كانت إلا خيالًا من كلمات مكتوبة عبر رسائل الكترونية، لكنها سرعان ما تحولت إلى أمواج صوتية لا تفرق أبدًا عن شدو بلبل حزين، وجدها تغرق في بحره، ويغرق في بحرها.

وعندما أحسَّ منها ذلك قال لها:

يا صديقتي:

حذارِ أن تحلقي في سمائي، أو أن تبحري في بحاري، أو أن تحومي حول أسواري، فإني وإنْ كنتُ لا أخشى على نفسي فإني أخشى على قلبك الضعيف، الذي لم يتمرّن بعدُ على العذاب، ولمْ يذق من جَور الأيام، ولم يحتسِ ألم المستحيل.

أنا يا صديقتي قلبي حجرٌ، مرّنتُهُ جيداً وصفّحتُ جدرانه وأقفلت أبوابه... فلا سبيل إليه البتة، ولا منفذ إلى داخله، ولا أمل في فضّ أقفاله -هكذا ظن-وإنّ بعض الظن إثم.

لم يقمر هلال الشهر حتى وجد نفسه قد هام بها، فإذا به لا يقوى على العيش دون همساتها، ويراها يمكث في أيامه كأنفاسه، تمنحنه الابتسامة الحلوة، تصنع من روحه الصاخبة نغماً جميلاً في المساء ليتردّدَ بين جوانبه طيلة اليوم التالي. أحبها بكل ما أوتي من إحساس، وشعر بقلبها امتلأ حباً وأملاً... حينذاك أراد لقياها.
فقال لها:

- كم أرغبُ أن أكون الآن بجوارك، أمسحُ اللآلىء عن مآقيكِ، وأقدّم لك كل تاريخي وصفحات عمري؛ علّها تكون ثمناً بخساً لدموعك.

قالت له: ساعدني أرجوك، أنجدني، أبعد عني هذا الحلم المخيف.

كيف يعيدها كما كانت نضرةً، عبقةً، تفوح عطراً وتشعُّ بريقاً؟ كيف يطهر قلبها من هذه الحب؟ لا سبيل إلا بلقياها.

أخبرها أنه عقد العزم على المجاذفة، وشد الرحال ليسير إلى حمص مدينتها، عبر مئات الحواجز المنوعة، وعبر حقول الألغام وميادين الاشتباكات.

توسلت إليه ألا يأتي، فالطريق لا تحمد عقباه، والمدينة تغلي بقلوب الثائرين، ولا موطىء لقدمي عاشقين في شوارع منتفضة.

لكنه أبى إلا الرحيل إليها؛ ليمسك بيدها وينظر في عينيها ويقول لها:

- منى، لقد جئتك خاطبًا.

طلبت منه حسابه على الفيسبوك، وصورته لتتعرف عليه حين تراه، فأرسل إليها ما طلبت بعد تردد. ثم قال لها: (أنا آتٍ).

الطريق إلى حمص كان خطرًا للغاية، منذ نقطة انطلاقه من بيته في حي الإذاعة بسيف الدولة بحلب، ومروه بجانب جامع آمنة الذي كان يتحاشى المرور من أمامه. لكن قلبه الجياش وأمله في لقاء محبوبته كان يطغى على شعور الخوف.

اتصلت به أكثر من مرة:

- أرجوك لا تأتِ، الطريق صعب، وأنا خائفة جدًا.

سمع شهقتها، انقطع صوتها قليلًا لتعود وتقول: أرجوك ارجع.

- لن أرجع يا منى، لن أقف إلا بين يديكِ

تتصل ثانية:

- إلى أين وصلت؟
- نحن على مشارف حماة، لا خوف إلا من قصف الطيران. نمر عبر الحواجز دون مشاكل.
- أرجوك ارجع.
- كيف أرجع وقد دنوت من هالتك؟

اتصلت بعد ساعات:

- ألم ترجع؟
- نكاد نطرق أبواب حمص، لكن الوقت سيكون متأخرًا جدًا، غدًا صباحًا سنلتقي حبيبتي.

سمع شهقتها مجددًا، لا يفهم معنى بكائها، ينقطع صوتها وهو ينادي بها، ثم تلقي عليه قذيفة ثقيلة قبل أن تقفل الخط:

- أخشى ألا نلتقي.

ظلّ واجمًا لا يعي شيئًا، يحدق في الظلام عبر النافذة، يتلفت داخل الحافلة فلا يرى إلا رؤوسًا مثقلة بالنوم، هدوء يخيم على الدنيا بأثرها، يرتفع صوت قلبه ويحاول أن يفهم شيئًا، يعيد الاتصال بها ليفهم الأمر، لكن هاتفها مقفل، أعاد الكرة بعد لحظات، ثم بعد نصف ساعة، بعد ساعة، لم يغمض له جفن، ظل حتى الصباح يحاول الوصول إليها دون جدوى.

أشرقت الشمس في يومه الحمصي الهادىء، مشى بضع خطوات يتفحص الشارع الخالي، إلى أين أذهب؟ عاد إلى الحافلة، وسأل عن موعد العودة إلى حلب. ثم عن مكان يرتشف فيه فنجان شاي. لم يبتعد كثيرًا، مرّ من أمام جامع خالد بن الوليد، كان لا يزال بعنفوانه وألقه، ربط في عقله الباطن بين الصور التي يراها في التلفاز وبين هذا الجامع، انقبض صدره فجأة، كأنه يخشى من انطلاق مظاهرة. أخرج هاتفه مجددًا وعاود الاتصال.

رنّ هاتفها، ركضت من الصالون إلى غرفتها لتستقبل المكالمة المنتظرة، أغلقت الباب وفتحت الخط:

- منى! ماذا يحدث؟ لماذا أغلقتِ هاتفكِ، لقد وصلت، أنا هنا في حمص، أكلمكِ من أمام جامع سيدنا خالد، كيف سنلتقي؟

ظلت صامتة برهة، نظرت عبر نافذتها إلى الشارع الصامت، سحّت دموع دافئة من بين مقلتيها، مسحتها على عجل لترد عليه:

- آسفة جدًا، لا تحاول الاتصال مجددًا، لن نلتقي أبدًا.

انتفض في الجهة الأخرى مذعورًا:

- لقد قطعت كل هذه المسافة، وغامرت بحياتي من أجل أن تقولي لي هذا الهراء؟ ماذا جرى؟

أجابته باقتضاب:

- اسمع، لا أستطيع التحدث الآن سوف أغلق الخط، ارجع من حيث أتيت، لا يمكن أن نلتقي، افهمني.
- لماذا؟ أريد أن أفهم.
- لأني...
- لأنكِ ماذا؟
- عُقد قراني على أحد أقربائي.

وأغلقت الخط.

طريق عودته من حمص كان قاسيًا مليئًا بالحقد، بالكره الممزوج بالعشق، بالألم الممزوج بالخوف، بالضياع، بالدهشة، حاول على مدى ساعات أن يصوغ لها رسالة، لتكون آخر كلماته لها، فكتب:

(اكرهيني فأنا عصرتُ قلبك ومزّقتُ أيامك وشتّتُ رُشدك، أنقذي نفسك مني. اذهبي إلى حيث تكبرين كوردة، إلى حيث تشعين كنجمة، إلى حيث تضائين كالقمر).

يتلاشى كل شي خلفَ الأفق الوهمي البعيد، ويضيع نسيم ذاك الصوت في الخِضَم البشري الهائل، في عجيج الألم الصاخب، في معمعة الزمن الموحش. ويبأس عن البحث والتجوال، ويركنُ إلى نفسه علّه يثوبُ إلى رشده، لكنه كان قد تصدع.

لم يرسم لها صورةً في مخيلته، لأن صوتها الملائكي الشّجي قد ألهمه أنها صوتٌ فقط. أنشودةٌ عذبةُ الألحان أُلقيت بجانب عينِ ماءٍ باردٍ، بريئةٌ كوردةٍ تفتّحت للتو وتفاجأتْ بضوء الشّمس الساطع.

انقطع صوتها لبرهة وبرهتين، ثم ليوم ويومين.

انقطع صوتها أياماً وأشهر، وسنوات. لكنه لم ينسَ.

نزل إلى شارع وطن الذي فتحه عدنان مندرس كأعرض شارع في إسطنبول حينذاك، قالوا له، هذا جنون، وهل تحتاج إسطنبول شارعًا بهذا العرض؟ أجابهم: إنه سيضيق بسياراتكم يومًا ما.

تذكر آخر مرة كان هنا، كان ذلك منذ ستة أشهر ونيف، عندما أقنع بعض الشباب بالهروب إلى اليونان عبر بحر إيجة، أتى بهم إلى هنا، وجمعهم بالمهّرب الذي يتعامل معه، كانت تلك آخر صفقة مع ذاك المهرب، فقد غرق شاب وقُبض على الآخرين على شواطئ إحدى الجزر اليونانية.

تنقل بعد ذلك في أعمال شتى، فاكتشف مواهبه في الإعلام وفي التصوير، وفي التمثيل، وأخيراً في الترجمة، وما كان ليكتشف في نفسه كل هذه المواهب لولا أنه اجتمع بأقرانه في النزل الشبابي، وشاركهم تجاربه وبادلهم أطراف الحديث، لم تكن هذه المجموعة مستقرة في النزل، بل كانت تتبدل باستمرار، هاجر البعض إلى أوروبا، انتقل البعض الآخر إلى نزل جامعي، تزوج آخرون وفتحوا بيوتاً مستقلة. أما هو فقد كان يستمتع في الجدال اليومي الذي يلتهم ساعات الليل. ولا يخرج النقاش عن مواضيعَ ثلاثة تتداخل كأنما هي موضوع واحد يشغل الشباب هذه الأيام: الثورة والدين والزواج، وكان بارعًا في الشبهات المتعلقة بالمواضيع الثلاث، فيلقي أسئلة متعاقبة على جلسائه.

لا ترتد إليه أجوبة مقنعة من الشبان الذين انقطعوا لسنوات عن كل أسباب العلم، فيلقي عليهم أسئلته ليغلي الشك في أفئدتهم:

- كيف يكون ديننا حضاريًا وهناك من يقطعون الرؤوس باسم الدين؟

يذكر أنه تورط يومًا مع أحدهم فأجابه أجوبة منطقية، ولما شعر بقرب الهزيمة أمام رفاقة التفت إلى موضوع آخر ثم آخر، ولم يسمح لذاك الشاب أن يقفل أي موضوع من تلك التي أثارها. يذكر أنه أجاد الهروب منه بطرح الأسئلة عقب الأسئلة، وعدم الالتفات لأي جواب.
كان الحل هو نفي ذاك الشاب المتمكن من النزل.

مرّ من أمام مطعم تفوح منه رائحة شوربة العدس التي أحبها واعتاد عليها هنا، لو كان لديه متسع من الوقت لجلس واحتسى كوبًا، لكن الفتاة تنتظر في الطرف المقابل. مرّ سريعًا من أمام المطعم وكاد يرتطم بالكراسي الملقاة على الرصيف أمام واجهة مقهى شعبي، انحدر سريعًا في جادة آك دنيز؛ ليجد من بعيد لوحة ضوئية لمحل التصوير.

كانت فتاته في الطرف المقابل قد ضاقت ذرعًا وهي تنتظره منذ نصف ساعة، كانت قد نزلت عند المحطة المواجهة لجامع مهريماه سلطان المطل على البوسفور، وسمت ببصرها إلى مئذنتيه الشامختين وهي تتذكر قصة الحب الأسطورية التي وسمت بالمعماري سنان باني هذا الجامع العريق؛ كهدية لحبيبته ابنة السلطان سليمان، ثم انحدرت نحو الممشى وهي تتأمل جامع يني والدة على يسارها وتتساءل: لماذا بنوا جامعين بهذه الضخامة في نفس البقعة؟ ثم مالبثت أن رأت أمامها مباشرة مئذنة جامع شمسي باشا، ومآذن عديدة قبالتها في منطقة محمود هُداي، يا الله! إنها تفيض بروح الإسلام، انتبهت أمامها إذ كادت تصطدم بأحدهم، ازدادت كثافة البشر على الممشى المحاذي للمضيق، عليها أن تنتبه جيدًا. على يمينها تمخر السفن، وتتراقص النوارس، وتتلألأ الأبنية الزجاجية في الجهة الأوروبية، ستواصل السير على هذا

الممشى حتى تصل إلى برج الفتاة، وتجلس هناك قبالته، وتنتظر ذلك المعتوه الذي لا يبرح يتأخر. هل سيخطبني؟ أم مثله مثل باقي الشباب الذين تعرفت عليهم والتقيتهم ونسيتهم؟ أومأت له أكثر من مرة، بل صرحت حين قالت له: (أنا لا أحب اللعب، أي علاقة بين شاب وفتاة يجب أن تفضي إلى الزواج)، غاصت في عينيه وهو يجيبها آنذاك: (وأنا مثلك تمامًا)

لم تستطع أن تتحرى صدقه، لكنها ظلت تمني نفسها وهي تطرق أبواب الثلاثين، دون أن تتجرأ وتعترف له بأي شي. طلبت من النادل كأس شاي وهي تأخذ مكانها في المصطبة الشاطئية المواجهة لبرج الفتاة وسط زحام معتاد لجميع العشاق الراغبين في فضح أمانيهم عند هذا البرج الأسطوري.

عندما أغلقت منى الخط يومذاك أجهشت بالبكاء، وهي تدفن في قلبها حلمًا ظل يعبث بقلبها أيامًا، فلم تكن تصدق أن تلتقي به، وتقف قبالته، وترى الحب في عينيه، كانت تتخيل أنها ستلقي بنفسها في حضنه غافلة عن عيون المتطفلين. ثم إن قدومه إليها عبر هذا الطريق المرعب لهو آية جده في الارتباط بها. كان قلبها يطير فرحًا حينما أخبرها أنه آتٍ. لكنها قبل أن تطاوعه تذكرت أنّ عليها أن تجتاز آخر شرط بقي معلقًا لأسباب لم تفهمها، فقد تمنع كثيرًا في إعطائها أية معلومات شخصية، حتى حسابه على الفيس كان يضن به عليها، وهي تزداد استغرابًا. كيف يمكن أن تعشق شخصًا لا تعرف عنه أي شيء؟ كيف يمكن أن تلتقي به وهي لا تعرف شكله كيف يكون؟

عندما فتحت حسابه على الفيس ظهرت صورة شاب حليق ذو شعر أسود فاحم وشارب ملفت وعيون عسلية، وابتسامة خفيفة. دقّ قلبها سريعًا وهي تتصفح معلوماته، ثم تتفحص إدخالاته ومشاركاته وتعليقاته، يهدأ قلبها رويدًا رويدًا، يقطب جبينها وهي تغوص أكثر في أعماق شخصيته، تنتبه إلى العلَم من خلفه في صورة تجمعه مع عدد من رفاقه، تشعر بشظايا قذيفة تخترق كل جسدها، تقف مصدومة، لا تستطيع أن تكمل، تغلق الصفحة وتجهش بالبكاء.

إنه في الطريق إليها، يتصل بها، تقول له ارجع أرجوك، يصر على القدوم، يتقلب قلبها بين رغبة اللقاء وتحقق الحلم وبين العهد الذي قطعته على نفسها مذ انطلقت الثورة. في لحظة ما شعرت أن ثورتها قد انتصرت وهي على بعد ساعات من لقائه. وجوده إلى جانبها سيعطيها دفعًا هائلًا في تعزيز نشاطها، امتلأت بالحماس وشعرت أنها تستطيع قيادة الثورة بمجملها وتسير بها إلى النصر المحتم. أجل ... في لحظة ما امتلكت كل القوة، سيعلو صوتها إلى عنان السماء وهي تنادي بالحرية، تقود مظاهرة حاشدة، تجابه الرصاص، لن تهاب شيئًا.

في اللحظة التالية وجدت نفسها عند مفترق طرق، فالثورة في وادٍ وحبيبها في وادٍ آخر، وكان عليها أن تختار.

وصلت منى مع عائلتها إلى مصر، كان الخيار الأنسب لوالدها، في منطقة ستة أكتوبر، أو العاشر من رمضان، بدأت رحلتها الجديدة، مصدومة بكل شيء، بقلبها الذي عشق من يرفضه عقلها، بالكثيرين من أمثاله من أبناء مدينتها، وطنها، بالأسماء اللامعة الكبيرة التي خاب فيهم ظنها، بالأمل المحطم، بالمنفى الذي يلملم شمل الخائبين، بنقطة الصفر التي رجعت إليها، إنها البداية من جديد.

حاولت أن تغوص في المجتمع المصري، أن تتآلف معه وتكتشفه، انتشت بمشاعر الود والطيبة التي قابلتها في هذا المجتمع. واستطاعت أن تجد عملاً تكسب منه وتعين به أهلها، وخصصت من وقتها جزءًا لنشاطها الذي لا يهدأ. وتمكنت في وقت قصير من تكوين فريق من صديقاتها للعمل في سد احتياجات اللاجئين.

في مطعم العم حمدي، كانت وجبتها اليومية هي الطعمية، في المرة الأولى نصحتها صديقتها المصرية بأن تتناول الطعمية بالمش، وكانت تلك هي المرة الوحيدة التي لم تتكرر بالمش، فصارت تطلب الطعمية بدون المش، لا تكاد تنهي وجبتها حتى تنهال عليها الأسئلة:

- لماذا خرجتم يا منى، ألم تكن الحياة سعيدة؟ انظروا إلى حالكم اليوم.

فيصعد الدم في عروقها، وتنتفخ أوداجها، وتبادر بالإجابة وكأنها تقاتل:

- خرجنا لأننا سئمنا العبودية، أردنا تنسم الحرية، وتعلمون أن الحرية لها ثمن، وهانحن ندفع ثمنها.

لم تدم أيامها المنبسطة طويلًا فسرعان ما تغيرت الأحوال، ليتم استدعاؤها للتحقيق. ثم ليتأخر صدور الإقامة. ثم ليرفض طلبها وتضطر للسفر إلى تركيا، تاركة أهلها هناك.

تركيا، الوجهة القادمة لها، تبدأ في البحث عن أشخاص تعرفهم، أين ستسكن، كيف ستبدأ، ومن أين؟ لا تزال تحتفظ بحسابه على الفيسبوك، هل ترسل له رسالة من حساب وهمي وتطلب المساعدة؟ وقفت أصابعها جامدة على لوحة المفاتيح، كيف تكتب له؟ إنه يقف في الصف المواجه، صف الأعداء.

استطاع أخيرًا العثور على محل التصوير، وقف أمام الواجهة الزجاجية وألقى نظرة إلى الداخل، المحل فارغ، وهذا ما شجعه لاقتحام الباب سريعًا، كي لا يضيع المزيد من الوقت، ألقى التحية على المرأة الخمسينية الجالسة خلف الطاولة، ثم سألها:

- أين المصور، أريد صورًا بيومترية من أجل...

قاطعته المرأة وهي تنهض من خلف الطاولة:

- تفضل إلى الغرفة على اليمين.

لحقت به المرأة وهي تعالج في يدها آلة التصوير من طراز كانون وتطلب منه أن يأخذ الوضعية الصحيحة. هل أخطأ؟ هل تسرّع؟ هل يمكن أن تكون هذه المرأة الريفية قادرة على التقاط صورة؟ تفحصها سريعًا، ترتدي معطفًا زيتيًا واسعًا كأنه من بقايا الجيش الروسي، وتضع على رأسها شالًا غريبًا، نظراتها حادة، تبدو جادة وصارمة، استسلم على الكرسي وهو يرفع رأسه قليلًا، ويحاول اصطناع بسمة أمام عدسة المرأة التي سرعان ما التقطت الصورة وقالت له: اتبعني.

جلس قبالتها، أدارت إليه شاشة الحاسوب ليرى الصورة.

- إنها تشبهك أليس كذلك؟

ابتسم وهو يجاوبها:

- نعم إنها تشبهني كثيرًا، يبدو أنكِ مصورة ماهرة.

بادلته البسمة قائلةً:

- أعمل في هذه الحرفة منذ أكثر من خمس وعشرين سنة، قدّر إذن عدد الوجوه التي تأملتُها.

لم تكن الأغراض المتناثرة على الطاولة توحي بحرفية المرأة، استطاع أن يتعرف على جودة آلة التصوير، وقياس العدسة، وأدرك أن جهاز الحاسوب بحاجة لإعادة تأهيل، فقد كانت استجابته للأوامر التي يتلقاها من سبابة المرأة بطيئة للغاية، جال ببصره على الجدران ليستكشف الصور النموذجية، لم يعثر على صورة لشخص مشهور، فنان أو رياضي أو سياسي، أو حتى شيف مطعم. أدرك أنه وقع في يد مصور شعبي تنقصه الخبرة، وليس له زبائن. لا يهم، فإنه لن يرسل بصوره إلى حبيبته، فقط سيرفق صورة مع ملفه لمفوضية اللجوء.

- من أين أنت؟
- من سوريا.

التفتت إليه المرأة تاركةً حاسوبها يتكفل بالطباعة، وقالت:

- أدرك حجم معاناتكم يا ولدي، الغربة ليست سهلة، ضياع الوطن لا يعوضه شيء. لقد تجرعت من نفس الكأس.
- من أين أنتِ سيدتي؟
- من أذربيجان، لجأت إلى تركيا منذ ثمانية وعشرين عامًا، عندما دخل الجيش الروسي باكو، وتوجهت البنادق ضدّ آلاف المدنيين الأبرياء الذين خرجوا إلى شوارع وميادين العاصمة يعبرون عن احتجاجهم على حركات أرمينيا العدوانيّة. هل تعرف شيئًا عن تلك الحادثة؟

احمرَّ وجهُه وتفصّد عرقًا.

- لا، لم أسمع بها.
- في تلك الحادثة قُتل أبي، قُتل مئات وأصيب مئات واعتقل المئات، وبعد إعلان حالة الطوارئ في البلاد كان الجيش يبحث

عن أسماء كثيرة لاعتقالهم، كنت أدري أن اسمي موجود في سجلاتهم، لكني استطعت الإفلات.

- حمدًا لله على سلامتك سيدتي.
- لم أستسلم، الموت أهون من الاستسلام، المياه التي تسيل من أعالي الجبال لا بد أن تجد مستقرًا، أجل يا ولدي نحتاج إرادة قوية، هذا كل ما في الأمر، ثم ستجد الأيام تنبسط أمامك، وتجد نفسك حصانًا جامحًا، تنطلق بلا هوادة، تصعد رابية وتنزل واديًا، وتدوم أيامك.

أنظر إلى خالتك، أترى هذا المكان، لقد أسسته بنفسي، تدربت عند مصور تركي ماهر، وأتقنت الحرفة. بعدها تغير كل شيء، استطعت مساعدة الكثير من أبناء وطني، هنا وهناك، تكاتفنا نحن هنا وجمعنا الأموال وأرسلناها إلى المحتاجين هناك. لم نقف للحظة، لم نتألم لبرهة، كان علينا المضي قدمًا، فعيون الجميع كانت ترنو إلينا وتنتظر، أجل يا ولدي الأمل دائمًا معقود بالشباب. وهذه المحن ما هي إلا اختبارات، يختبر الله بها شبابكم.

رفع هاتفه ليرى الساعة، ثم بادرها بابتسامة وقاطعها قائلًا:

- هل انتهت الصور؟
- سامحني يا ولدي، أتحدث عن أمور تافهة أمامك، ماذا تشكل مأساتنا أمام مأساتكم؟ لا تساوي شيئًا، أتحدث كمخبولة عن بعض الجهود البسيطة التي قمنا بها، ماذا تساوي أمام عظيم جهودكم؟ أجل لا بد أنك تسخر مني، سامحني يا ولدي، لا بد أنك أنقذت الكثيرين من تحت الركام، حملت جرحى بين

ذراعيك أو على أكتافك، وركضت بهم ودماؤهم تسيل على ذراعيك، لا بد أنك رأيك وجوهًا مشوهة، صدورًا مضمخة، أجسادًا مقطعة، أطرافًا مبعثرة، دموعًا تائهة، لا بد أنك نصبت الخيام للتائهين، وزّعت الخبز على الجياع المساكين، نقلت الأدوية للجرحى، نقلت أنين الثكالى وصرخاتهن، لا بد أن ذاكرتك متخمة بملايين الصور التي لم تلتقطها عدسات الكمرات، ولا رأتها عين خارج بلدكم، صدرك محقون بالألم، بالحقد، بالأسى. أجل انظر إلى صورتك، عيناك براقتان بالدموع، أترى الألم، أترى الحزن؟ أترى التوقد كأنهما جمرتان؟ أترى الحنين؟

ألقى نظرة سريعة على صورته في يد المرأة، كان جسده حقًا يمتلىء بشعور غريب يراوده للمرة الأولى، شعور خجل ممزوج بالندم مع قليل من الاحتقار. لم يحاول النظر في عيني المرأة، ظل محدقًا في يديها بينما استمرت المرأة تقول:

(عندما لجأنا إلى تركيا كان الحنين إلى الوطن هو أكبر أوجاعنا، كنا نعزي أنفسنا بالعودة القريبة، نحاول ألا نتأقلم مع حياتنا الجديدة، ونحن نعيش تفاصيل ذكرياتنا، نخشى أن ننسى منها أي لحظة، تمسكنا بها بأسناننا، فلما طال بنا أمد اللجوء، اضطررنا إلى النهوض، والسير بخطا ثقيلة، مرهقين تحت الأعباء العظيمة، اضطررنا إلى محو شيء من ذاكرتنا، كان الخيار الوحيد أمامنا هو التكاتف، تمسكنا ببعضنا، وسرنا في طريق البقاء، كنا نتقاسم الرغيف، والدموع. آه ياولدي سامحني أرجوك، ماذا يشكل كل هذا الهراء أمام معاناتكم، سمعت بآلاف الخيم التي نصبت للاجئين، سمعت بالأيتام، بالأرامل، لا بد أنكم كشباب لا تنامون ليلكم؛ تركضون من هنا إلى هناك لتقدموا خبزًا لجائع، ثوبًا

ليتيم، مأوى لفقراء، أنظر ياولدي، أترى التعب الظاهر تحت عينيك، هذه التجاعيد هنا هي التي تحدثني عن سهرك الليل.

رنا إلى الصورة مجددًا، كان شعور الاحتقار يزداد شيئًا فشيئًا، لأول مرة رأى انتفاخ عينيه، أجل انتفاخ عينيه من السهر، لكن ليس سهرًا من أجل الفقراء، ولا الأيتام، ولا من أجل أي شيء ذي قيمة.

وضعت المرأة صوره في المغلف وقدمتها له، بينما أخرج من جيبه ورقة نقدية من فئة خمسين ليرة ووضعها أمام المرأة، إلا أنها أعادت النقود وهي تقول: احتفظ بنقودك يا ولدي.

- لا يمكن، هذه أجرة التصوير.
- لا يا ولدي، لن أتقاضى منك شيئًا، ولن أتقاضى من أي لاجئ تطأ قدمه هذا المكان.

احتقن ولم يدر ماذا يجيبها، علقت الكلمات في فمه، لكنها ابتسمت وقالت له:

- إذا كنت ترغب في دفع مقابل، فأرجو أن تحقق لي أمنيتي.
- بالتأكيد أتمنى لو أدفع مقابل كرمك وتعاطفك.
- إذن أود سماع شيءٍ من القرآن الكريم بصوتٍ عربي مبين.

كصاعقة هبط عليه طلبها، مضت سنوات ولم تجر على لسانه آيةٌ واحدة، ولوهلة وجد نفسه وجهًا لوجه أمام سور عديدة كان يحفظها عن ظهر قلب، ويترنم بها آناء الليل وأطراف النهار.

ولم تمضِ ثوانٍ معدودة حتى تمثلت في ذاكرته سورته المحبوبة التي كان يحرصُ على تلاوتها بعد صلاة الفجر كلّ يوم.

- ألن تقرأ لخالتك؟

رفع رأسه عن وجهٍ محمر، وعيونٍ تكاد تدمع، وهزّ برأسه موافقًا وحمحم وأنشأ يقرأ:

(الرَّحمَنُ، علمّ القرآنَ، خلقَ الإنسانَ، علَّمهُ البيان...)

عندما خرج من محل التصوير بدأ هاتفه يرن مجددًا في جيبه، كان الشارع مكتظًا بالسيارات، والمشاة، التفت إلى يمينه ليبدو له شارع وطن العريض، ثم التفت إلى يساره ليرى مئذنة جامع الفاتح في الأعلى، داهمه صوتها فشعر باختناق شديد في صدره.

- أين أنتِ يا منى؟ أنا بحاجة ماسة لأن أسمع صوتك.

لا يزال الهاتف يرن، مدّ يده والتقطه من جيبه، كانت النغمة تلح عليه أن يضغط زر القبول، شعر أن صوتها سيكون وقعه كما صوت منى. خفق قلبه في حين ضغط إبهامه على الزر الأخضر، وأجابها:

- **أنا آتٍ.**

-7-

حبة العنب

أيةُ آلةٍ آثمةٍ تجرفُ تراب أزليتك؟

- هل بقيت رقعة أرضٍ لم نملكها بعد؟
- كلّا سيدي، نحن نملك كل شيء هنا، الأرض ومافوقها وماتحتها.
- إذنْ فلنطلق مشروعنا الجديد، مشروع التهجين.

قاطعه رجلٌ مسن حليقُ الذقن والرأس، لا تجد فيه أثرًا لجذر شعرة:

- هل امتلكتم أرض أبي الفضل؟

صرخ الرئيس وهو ينظر في عيني معاونه:

- امتلكنا كل شيء، أليس كذلك؟

احمرَّ وجهُ المعاون وهو يطأطىء رأسه ويحدج الرجل المسن الذي ينصب نفسه مستشارًا للمملكة الجديدة. ظل صامتًا برهةً وهو يفكر في تبرير مناسب، وسرعان ما رفع رأسه وهو يقول:

- نعتبر أنفسنا امتلكناها أيضًا سيدي، لا تهتم.

في قاعة الاجتماعات المجاورة جلس المعاون مع المستشار المسن يلومه على هذه الهفوة أمام الرئيس، وفي الحين ذاته يتلمس منه رأيًا في امتلاك أرض هذا العنيد أبي الفضل.

كان المعاون يشرح كل إنجازاته في امتلاك أراضي الناس هنا، سواء الباقون منهم أو الراحلون، وبرامجه المكثفة التي مهدت لإطلاق مشروع التهجين هنا، فقد كان لابد من تغيير العقول والنفوس والسيطرة عليها قبل كل شيء، إلا أن محاولاته في إقناع أبي الفضل في

بيع أرضه باتت جميعها بالفشل، راح يشرح عناده الفظيع، وإصراره على التمسك بهذه الأرض التي لم تكن تعني لأحد شيئًا، لتتحول اليوم إلى حديث الساعة. بينما كان المستشار يحبك في رأسه خطة امتلاك أرض أبي الفضل، آخر ما تبقى من أملاك الأهالي في المنطقة.

لم يكن أبو الفضل ممتنعًا عن بيع أرضه في البداية، بل كان يؤجل البيع حتى تتحرك الأسعار فيبيعها بسعرٍ مختلف عن باقي الأراضي. وفي بعض الأحيان كان الشيطان يوسوس له ويقلقه أن البيع سيهدأ، والأسعار ستخفض، فلا ينام الليل منتظرًا إشراقة الشمس من الغد ليرى من باع ومن اشترى وما الأسعار، تقلبت أيامه الأولى مع تقلب الأسعار، بينما كانت الأرض تتقلب من أيدٍ إلى أيدٍ أخرى.

بع يا أبا الفضل.

لا تبع يا أبا الفضل.

كانت أيام أبي الفضل قد لبست ثوبًا آخر عقب العقد الملطخ بالدماء والدموع، فقد هدأت فوهات البنادق، وصرخت أفواه البشر، تبدلت الأحلام والأماني، من نيل الحرية إلى جمع الأواني، تقلصت الغايات إلى رؤية ما وراء أسوار أرض المعارض، ومراقبة العروض الفنية هناك، والتمتع بالأنوار الملونة الصاعدة إلى السماء والمنعكسة من الغيوم بأشكال تختلف كل ليلة، والموسيقا التي تجعل تلك الأنوار ترقص كما أنها تحتفل بميلاد نوع جديد من البشر. ويتلهف أطفال اليوم لرؤية مدينة الألعاب الخرافية التي سُيّجت بأحجار المرمر بعلو خمسة أمتار، ببوابة تحاكي ديزني، ويحترقون غيظاً وهم يسمعون ضحكات أطفال السادة المتمتعين بأحدث الألعاب وأجمل السباقات، وتوزع عليهم الهدايا النفيسة.

تهتم النساء بالسُّوق الضخم المؤلف من ثلاثين طابقاً عدا عن طابقي القبو، ومتابعة آخر موضات الألبسة والأغذية والأحذية، وآخر صرعات المطابخ الإيطالية والعطور الفرنسية والسَّاعات السويسرية. وأحدث تصاميم غرف النوم وغرف الضيوف وغرف المؤتمرات، وحتى غرف الكلاب، وأجنحة المطبوعات الخاصة بقوانين حماية حقوق الكلاب وما سواها من الحيوانات. واليافطات التحذيرية من ارتكاب جرم زجر كلب أو تقليد قرد. أما الشباب فقد كان همهم إلقاء نظرة على القسم الذي يحفظ كل أنواع الأسلحة الأثرية التي استخدمت في إبادة أبناء الوطن ممن طالبوا يومًا بحريتهم في العقد الملطخ بالدماء.

وعندَ أقدام الجبل الممتَدِّ أمامَ أرض المعارض تمتد قطعةُ أرضٍ مزركشةً بأشجارِ الجوز، مسيّجةً بالحور واللوز، متاخمةٌ للغابة التي تتجدد أشجارها بعد أن قطعت واستخدمت حطبًا للمواقد الجائعة في أيام البرد القارس. وكانتْ قطعةُ الأرض تلك هي آخرُ حبةٍ من عنقودِ عنبٍ تناثرتْ حباته على قاعٍ مُوحلٍ، فتبعثرتْ واختفتْ وانتهتْ. وكانت هذه الحبةُ من ذاكَ العنقود هي حديثُ السّاعة لأهل القرية والقرى المحيطة وللناس الغرباء الوافدين إلى الجبل من كل حدب وصوب، فقد رفض أبو الفضل بيع أرضه بأي سعر، بعد أن كان يترقب ارتفاع الأسعار. قال لزوجته ذات ليلة:

- أرأيتِ إلى الناس يتهافتون إلى بيع أراضيهم، ممتلكاتهم، أنفسهم؟ ومن الذي يشتري؟ ومن هؤلاء الغرباء؟ لماذا بنيت أرض المعارض؟

أجابته ناعسة العينين، تمد يدها إلى المخدة المجعدة وتقربها بلطف:

- لم تبقَ سيدةٌ هنا إلا وهي ترتدي في يديها أساور من ذهب، فإن لم يكن فطوقٌ براق، فإنْ لم يكن فخواتم جميلة، أنظر إلى زوجتك، كأنها جارية شمطاء.

رمقها أبو الفضل وهو يقول:

- كنتُ سأبيع أرضي أيضًا وأشتري بثمنها بعض الذهب، بعض الأواني، ربما سيارة أيضًا، لكن ثم ماذا؟
- ثم مثلك مثل كل من حولك.
- لم يبق لهم وجود.
- لا أفهم معنى تمسكك بتلك الأرض، ونحن أحوج ما نكون إلى النقود، إلى بعض الأساور.

تأفف أبو الفضل وأسند رأسه إلى الحائط فاستقرت أنظاره في سقف الغرفة وهو يقول:

- إنها بقايا حنينٍ إلى ذكرياتٍ قديمةٍ زرعتها في كلِّ ركنٍ من أركانها، وأودَعتها عند كلِّ صخرةٍ وحجر، وخبأتها في ثنايا كل خطٍ خطّه المحراث، وفي تجويف كل شجرة وأغصانها، حتى كانت مني كأمي التي ولدتني، وكأبي الذي امتدُّ منه، وكأخي الذي انشققت عنه.

قاطعه شخير زوجته التي أسندت رأسها إلى الوسادة وغاصت في نوم عميق.

في الجهة المقابلة كان الرئيس ينتظر تأكيدًا من معاونه بامتلاك أرض أبي الفضل، بينما أدلى المستشار بدلوه وطلب من المعاون تنفيذ خطته.

لم تكن الخطة صعبة، بل رآها المعاون يسيرة لن تأخذ منه مزيدًا من الجهد. فلم يمضِ يوم حتى تجمع الناس أمام بيت أبي الفضل، ليس

في أيديهم سلاح ذو بال، لذا لم يأبه أبو الفضل بتكتلهم، وهو الذي استشعر فيهم الخواء والفراغ، فوقف قبالتهم برجولته وشهامته وكرامته ينتظر منهم طلبهم.

فانبروا يلومونهُ أشدَّ اللَّوم ويزجرونهُ، ويشتمونه مع كل نفسٍ وهمس، لأنه شذَّ عنهم وخالفهم وعصى تقاليدهم وأعرافهم، شعرَ لوهلة كأنّ الفضيلةَ تلتقي الرذيلة، أو العفّة تلتقي الخيانة، أو الاستقامةَ تواجه الانحراف، أو النباهة تصارعُ الجهل، ولما تفرس في وجوههم داهمهُ هاجسٌ أخافه:

(هل أصاب هؤلاء السفهاء عين الحق وأخطأت أنا؟ هل فازوا وخسرتُ أنا؟ هل تخلفتُ عن ركبهم فلم أبع أرضي فأنا الآن في نظرهم سفيه ضعيف، خرفٌ جلفٌ؟)

قالوا له:

- بعنا أرضنا وبعنا أشجارنا وبعنا دورنا وشموعنا، وقعدنا ههنا مع القاعدين، فما بالك تركضُ وحدَك؟
- أزحنا عن كاهلنا المحراث، وطردنا الثيران وأكلنا العلفَ، فما بالك تحرثُ وحدَك كالثور الهرم؟
- نسينا روائحَ المروج ونغمات الطيور وندى السّحور وهديّةَ الشّمس عند إسفار الصباح، والظل الوارف ورائحةَ الثرى بعد هطل المطر. فما بالك تنكّدُ حياتك بها؟
- تجاوزنا شجارات الحدود والتخوم، فلم تعدْ لنا حدودٌ ولا تخوم، ولا كتائب تدافع عنها. فما بالك تنغّص عيشك بحثًا عن حجر تحفظُ به تخمَ أرضك فيجيء في الغد من يفجُّ به رأسك؟

قال لهم:

- منْ ماتَ ذودًا عن أرضه فهو شهيد.

قالوا:

- لا طاقةَ لنا بقتالٍ، ولا منيةَ لنا في شهادة، فما بالك رضيتَ أنْ تُقتل؟

حمحم عجوزٌ ناهز التسعين من عمره، ورفع يده اليمنى الوحيدة قائلًا:

لماذا الأرضُ إنْ لم تكن لنا خرافٌ ترعى؟

لماذا الأرضُ إنْ لم يكن فينا فلاحٌ يحرث؟

لماذا الأرض إنْ لم تكن لنا نساءٌ تحصد، تقطف، تسقي، تخبز، تلد؟

لماذا الأرض إن كان هناك بحرٌ يتّسع لنا جميعًا حتى نعومَ فيه، ونغوصَ فيه، ونغرقَ فيه؟

لماذا الأرض إنْ كان لم يكن لدينا شباب؟

قاطعه شابٌ وسيمٌ لا تكاد تميزه عن فتاة جميلة:

- ها نحن أولاء بجوارك، ألم تعد عيناك تبصران؟

سعل العجوز ولفّ سترته على جانبه الأيسر، كأنه يومىء إلى يده التي فقدها أيام الثورة، وأجاب بصوت مرتعد:

- شبابنا منصرفون إلى العمل في أندية الغرباء ومقاصفهم وفنادقهم ومعارضهم وحاناتهم وحظائرهم؟

انتفض أبو الفضل، وثارت ثورته، وبلغت حميته أوجها؛ فصرخ:

- لا أستطيع أن أرى غيري يتفيأ بظل أشجاري، ويتخطّر بين أسواري، ويتباهى بثمار أشجاري، ويزدريني كلما مرَّ بجواري.

أتراهُ يسمح لي إنْ مررتُ بجوارِ حقلي أنْ أشمَّ رائحته. أن أكحل بصري بجماله، أو أذكر شيئا من ذكرياتي فيه؟

أظنّهُ يحرمُني منْ كلّ هذا ويسجنني مثلكم بين جدران الاسمنت، لأراقبَ كم شقًّا في الجدار، وكم نملةً تتسلق، وكم بعوضةً تهبط، وكم ذبابةً تحوم وتطنّ وتسقط في إناء شربي وأكلي. لأموت بعد ذلك متحسرًا على أريج وردةٍ، على لذةِ ثمرةٍ، على نغمةِ عصفورةٍ، على بهاءِ الخضرة... فأين أُدفن؟

أيةُ أرضٍ تقبل جثتي؟

الأرضُ جسدي، الأرضُ أبي وأمي، الأرضُ أنا وأنا الأرض، إنْ ماتت متُّ وإنْ عاشتْ عشتُ، ولا أحَبَّ على قلبي من أن يهراق دمي على تخوم أرضي.

وبينما كان يدلي بدفاعه أحاط به عددٌ غير قليل من رجالات ووجوه القرية بفؤوسهم، وحاصروه بصرخاتهم وشرارات عيونهم، حتى سمع رجال من القرى المجاورة تهديداتهم:

- سنقتلعك من أرضك، سنحطم هذا العنفوان على أعلى صخرة في أسوارك، سنجعل عنادك عبرةً لكل من أبى واستكبر.

وقريبًا منهم كان المستشار العجوز يقف بجوار المعاون مبتسمًا ويتمتم:

- إن القلة مع القوة غلبتْ الكثرةَ مع الضعف، لقد تحوّل الناسُ في الجبل إلى مواشي لا راعي لها، وإنما أحيطت بها كلابُنا كي تحبسها في الحظائر، وتمنعها حتى من أكل الكلأ في السّفوح والمروج.

أجابه المعاون مبتسمًا أيضًا:

- ودَبَّ فيهم التقاعسُ حتى تقاعسوا عن النوم، وتكالبوا على رمي أنفسهم عند أقدامنا كي يحصلوا على لقمةِ عيشٍ، على شربةِ ماءٍ، على نسمةِ هواءٍ، على ابتسامةٍ يابسة.

لكزه المستشار على كتفه وهو يقول:

- ها قد امتلكت حبة العنب، فلتمضِ في مشروعك.

وسرعان ما أعطى المعاون أوامره فتوجّهت مجموعة من الشبان مدجّجين بالأسلحةِ والكلاب المهجّنة إلى الأرض ونصبوا في واجهتها يافطةً ضخمةً كُتب عليها بالخطّ العريض:

(مشروع بناء معهد تهجين البشر).

وماكاد الخبر هذا ينتشر عبر ممرات القرية حتى ضجَّت السّاحاتُ بالصّراخات، والشّعارات، والنداءات، والأهازيج والضحكات، والثرثرات، والفجور والمياعات، والفحش الصارخ والفلتان.

(وبدأ الحبور يتسلل إلى قلب أبي الفضل، وهو يرى ردود الفعل والاحتجاج على فعلة الغرباء الإجرامية بحقه).

ونُشرَ عبر الأثير إعلانُ احتفال ضخم سيقام قريبًا، وتظهر في الشاشات أشجار الجوز والحور واللوز. احتشد الغرباء... واحتشدَ أهل المنطقة بأسرها!

هدأ الكهل الصاخب قليلًا وسأل أحدًا ما بجواره:

- ماذا سيفيدنا هذا المعهد؟

- أولسنا بشرًا؟ بلى نحن بشر! إذن فهو لنا نحن.

- لكننا مهجّنون حتى آخر خلية.
- لا تيأس، قد يجدوا فينا شيئًا لا يزال بحاجة للتهجين.

وفي طريق عودتهم من الحفل الكبير وجدوا جثة صاحب الأرض ملاصقةً لجذعِ شجرةِ جوز مخضبةً بدمائه.

وكانت هذه آخر دماء تسيل في سبيل حبة العنب.

-8-

حنين تحت الرماد

سيتقد الجمرُ من جديد طالما هناك بقايا حنين

- هل سمعتم بآخر الأخبار؟
- أخبرنا ما وراءك.
- آواز عازمٌ على العودة.
- العودة! إلى أين؟
- إلى الوطن.

مدّ الجميع أعناقهم مشدوهين بينما أرسلت ميس زفرةً طويلةً متأففةً ومتحسّرةً، الأمرُ الذي شدَّ إليها انتباه الجميع، فبادر جوني بسؤالها قائلًا:

- لمَ كلُّ هذا التأفف يا ميس، ألم تعجبك الأخبار؟
- لا لم تعجبني، هذا المأفون لا يزال يسكن حي باد غودسبيرغ، بعد أن نصحناه ملايين المرات أن ينتقل إلى هولزلار، والآن تقولون إنه سيعود إلى الوطن.
- ربما يفكر في الأمر فحسب.
- إنه حقًا يدعو إلى السُّخرية، ما زال هناك أناس يفكرون في العودة إلى الوراء، إلى تخلف الشرق.
- علينا أن نسمع منه وجهة نظره، إنه قادمٌ بعد قليل؟

- يكفي أنه يفكر بالأمر. مضت سنوات ونحن نعمل في مشروع الدمج، هل هذا يعني أن الدمج هراء؟ علينا أن نمنعه من العودة بأية وسيلة.

في مقهى هادئ مطلّ على نهر الراين كانت مقطوعة (فور إليزا) لموسيقار بون لودفيج فان بيتهوفن لا تزال خالدة كأنّها ولدت مع ضياء قمر ليلة أمس، وهي تضفي على المكان جوًا سحريًا تمتد خيوطه لتلمس أعقاب التاريخ، لتخدش شغاف الحضارة، على بعد أمتار قليلة من متحف أريثميوم.

لم تكمل ميس كلامها حتى دخل عليهم آواز، فَغرَ الجميعُ أفواههم ونظروا إليه بازدراء شديد.

- ماذا حصل لكم؟

أجابته روسيل بامتعاض:

- ما هذا الكلام الذي سمعناه يا آواز، تعتزم العودة؟

أخذ مكانه على كرسي مجاور للواجهة المطلة على النهر، الذي تنبت منه أضواء السفن كأنها شموع تتلالأ في خضم مظلم، بينما انطلقت في الأجواء معزوفة (سوناتا) الجياشة.

- لم أفلح في لملمة شملي، أولادي كبروا هناك، زوجتي لا تزال تنتظر عودتي من الديوان العام.

ارتج المكان بضحكة عامة علت مع أنغام البيانو، وهدأت معها.

- يقول: «الديوان العام، لملمة الشمل».

- أيها الأبله، دع الشمل وأكمل حياتك هنا.

- آواز، انظر إلى من حولك، نحن هنا في بون، أولاد عمك في ليشبونة، أولاد خالك في نيقوسيا، أولاد خالتك في كوالالامبور.

ضحك جوني قائلًا:

- أنا هنا في بون، وأخي الأكبر انتقل إلى أوتاوا، أختي انتقلت مع زوجها إلى أمستردام، أبي وأمي... تعرفون غرقا في إيجة.
- أمرٌ مضحك حقًا.
- مضحك أو مبكٍ، الأمر سيّان.

مدّ آواز يده لكوب الشاي؛ وارتشف منه قليلًا وهو يجول ببصره في المكان الذي بدأ يعج بعشاق الموسيقا. ثم التفت إلى اليمين ليرنو إلى الأضواء الجميلة في الضفة المقابلة.

هؤلاء الحمقى لن يشعروا باللظى المتأجج في روحي، بالشوق العارم الذي يؤرقني ليل نهار، ويحرس جفني من هجمة الكرى، كل شيءٍ بقي هناك، الزوجة والأولاد والوطن.

التفت إليهم قاطبًا جبينه وقال:

- كلُّ شيء بقي هناك، الزوجة، والأولاد، والوطن.

ضربت ميس الطاولة بقبضتها وقالت محتدة:

- طالما أنك تعيش في ذلك الحي فستذكر الوطن على الدوام. عليك أن تتركه لتنسى.

صاحت روسيل: أجل يا آواز، عليك أن تنسى.

التفت جوني إليه مبتسمًا كعادته:

- أنا غيرت اسمي كي أنسى كل شيء، وأولادي لا يدركون شيئًا عن تاريخي. أتعلمون ماذا حصل مع ابني جاك.
- ماذا حصل معه؟
- وقعت في يده فلاشة ذاكرة فيها أغانٍ قديمة، استمع إليها وأعجب بها كثيرًا.
- وما الغريب في الأمر؟
- ظنَّ أن الأغاني لُغيةٌ أثريةٌ تعود للهجات الشرق الأدنى.
- وماذا كانت في حقيقة الأمر؟
- أغانٍ لفيروز، محمد عبده، مارسيل، سميح شقير، شفان برور!
- ومن هؤلاء بربك؟
- لا تهتم. دعنا نستمتع بمقطوعة بيتهوفن الخالدة.

كان الضوءُ الخافت الذي ينبعث من زجاجةٍ مصنوعة على هيئة القناديل، يُضفي على المكان جوًا شاعريًا رائعًا. إلا أنّ أصواتهم لم تكن مندمجة مع الأنغام والشاعرية التي كانت تسود المقهى، كانت تعلو تارةً وتتهاوى تارةً أخرى.
قالت ميس مجددًا:

- عليك أن تغادر ذلك الحي يا آواز، أنا أيضًا لم أندمج إلا بعد أن غادرته.

استيقظ مجد من هدأته وبدأ يرشقه بمحاضرة تاريخية:

- أيها المأفون لقد تركنا قبورَ الأجداد ـ يوم تلبّدت سماء الوطن ـ هربًا من الظلام الفاحم والفقر المتقع والجوع اللاذع، وانعدام الكرامة وبروز الرعاع، وركنّا هنا عند أبواب الحضارة.

أيها الغبي، دونّا أسماءَنا في سجلات هذه البلاد، ومددنا رقابنا بطول أبراجها الشاهقة، ولهثنا خلفها وزحفنا ودرجنا وتخطّرنا ودلفنا، حتى نكاد ندفن في طيّاتها.

نريد أن نرتقي بأنفسنا ونكون مثل هؤلاء البشر من حولنا... أنظر، راقب الناس من حولنا، نريد أن نتماهى فيهم.

كانت السيمفونية التاسعة في أوج غضبها، حينما استأذن آواز بالانصراف.

لا أحد يشعر بشوقه لبيوت كركوش البسيطة المبنية من حجارة الكلس، عند أطراف الغابة، تتراقص على جنباتها فراشات سكارى من عبق شقائق النعمان، وإلى مكتبه في الديوان العام، وزملائه وطوابير المراجعين -ترى هل لازال هناك مراجعون-والباص العائد إلى القرية، بما يحويه من خليطٍ اجتماعي كان قد اعتاد عليه.

قال لنفسه وهو يقترب من الممشى الاسفنجي على ضفاف الراين:

«هل بدأنا بالذوبان كثلوج القطبين تحت وطأة حرارة لهفتنا وغبائنا؟» في آخر مكالمة مع زوجته ليلة أمس سمع منها عبارات صادمة:

(الوطنُ جميلٌ يا آواز، أجملُ من نيقوسيا واندونيسيا وماليزيا، مدنهُ أحنُّ من شوارع باريس وروما وبون، جباله أبهجُ من كليمنجارو والألب وهيمالايا، أنهارهُ أعذبُ من الميسيسبي والأمازون والراين.

لكنهم حوّلوا صوت القطيع وعواء الكلاب إلى موسيقا البوب والروكي، وحولوا المراعي والمروج المتألقة بأزاهير الأقحوان وشقائق النعمان والبنفسج والنرجس إلى نوادٍ مغلقة، لا نعرف ماذا يحدث وراء أسوارها، لقد بنَوا أبراجًا شاهقةً، وفنادقَ هائلة ومقاصفَ فخمةً ومتاجرَ متنوعة، ومدنًا للمعارض وصالات للحفلات، وأخرى للمؤامرات.

سيّاراتهم تدهسُ كراماتنا وشهاماتنا وممراتنا وحضاراتنا وقبور أجدادنا، إنها تدهسُ أطفالنا، ولا يحقّ لنا أن نصرخ أو نحزن أو نبكي أو نتألم أو نستنجد.

فتياتهم الفاتنات تجذبن انتباه شبابنا ورجالنا وكهولنا ونسائنا وحتى خرافنا وكلابنا، تجبرن كلّ شيءٍ على الانحراف، حتى أعمدة بيوتنا.

هناك أعشاب تيبس، ورود تذبل، خراف تجوع، أعمدة تنحرف)

على ضفاف الراين قبالة المكتبة الجامعية الضخمة بدأ يشعر بنسمات باردة تلذع وجهه، في حين كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة ليلًا. أسرع إلى المحطة القريبة واستقل الحافلة المتجهة إلى حيه عبر الشارع رقم تسعة المحاذي للراين، مارًا من أمام متحف أليخاندرو كينغ، ومتحف كونست.

على يساره تتلألأ الأضواء في الضفة الأخرى بألوان شتى، لكنه يسرح إلى ما بعد تلك الأضواء غافلًا عن معزوفة توكاتا التي تتماوج كالحافلة وتخلد عازف الأرغن (يوهان سباستيان باخ) رغم آلاف العازفين المحدثين من بعده، ترى ما الذي يدعوهم للتشبث بكل ماهو أثري، بينما نهرب من تاريخنا هروب الفزع من جنيّ؟

يحاول أن يبحث عن إجابة، عن معنى حقيقي يشده إلى هذه البلاد، عن سبب يدعوه وغيره إلى التملص من التاريخ كأفعى تتملص من جلدها، ألِعيبٍ يشوب ذاك الجلد، وبهرج يتسربل على هذا الجلد؟

رغد العيش يقابله شظفٌ، وكرامةٌ تقابلها مذلة، هل أعود؟

هنا عمل أكتسب منه، وبيت جميلٌ آوي إليه، وأصدقاء تائهون مثلي، ولا همّ يثقل الجوارح.

وهناك زوجة وأولاد ينتظرون لملمة الشمل. وأهلٌ وأحباب ينتظرون لقاءه. سنوات طويلة مرت به وحيدًا بعيدًا حتى عن نفسه، تماهى هنا مثل الآخرين في بوتقة الحضارة البراقة.

صدر من هاتفه النقال رنين إشعار خاص بزوجته، مدّ يده إلى جيبه والتقط الهاتف، وفتح التشفير ليدخل إلى الرسالة، كانت مقتضبة، عبارة عن كلمات معدودة، لكنها تحمل كل الماضي بأثقاله، كما تنضوي على كل المستقبل:

(كأنها تبدأ من جديد)

كان عليه فتح مقطع الفيديو ليفهم المقصود، تردد قليلًا في فتح المقطع، فالفوجا تملأ الجو صخبًا، إلا إنه لم يقاوم فضوله، فما الذي يبدأ من جديد؟ وماذا تريد أن تقول زوجته؟

ضغط بإبهامه على الشاشة لتتحرك صور عفوية في مقطع غير متقن تم تصويره من عدسة هاتف نقال، ارتفع الدم إلى وجنتيه، واتسعت حدقتا عينيه وهو يراقب ما لا يمكن تخيله، كيف هذا؟

تابع المقطع حتى النهاية، توقف عند الثانية 53، أعاد تشغيله وقرّب الهاتف من أذنه ليلتقط الأصوات المشوشة، في حين شعر أن معزوفة باخ تلاشت للأبد، أرهف السمع ليغوص في أوتار الماضي، لا يصدق، إنه يسمع نفس الأصوات، نفس الصرخات، نفس النبرات، نعم إنها هي نفسها، لا يمكن... وبحركة لا شعورية كانت أصابعه ترفع الصوت؛ ليبدو مسموعًا واضحًا للجميع، واختلطت الأصوات مع ضجيج التوكاتا والفوجا:

(الموت ولا المذلة...)

***